

اللفظ الخفي

تدبرأت في هندسة الابتلاء
والتمكن في سورة يوسف

رَدَّادُ السَّلَامِي



اللطفُ الخفيُّ

تدبرات في هندسة الابتلاء

والتمكن في سورة يوسف

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين...

سورة يوسف ليست أحداثٍ فحسب، بل سورة تكوينٍ إلهيٍّ للإنسان وهو يُساق بين الكسر والاختيار والتأويل والستر والصبر حتى يبلغ موضعه الذي أراده الله له.

سورة الكهف كانت — في وجهٍ من وجوهها — سورة النجاة من الفتنة بالموقف الإيماني الواعي، أما سورة يوسف فهي سورةٌ أخرى في بنائها وروحها؛ إنها سورة النجاة داخل الفتنة نفسها، لا بالهروب منها دائماً، بل أحياناً بالمرور فيها، والاصطبار عليها، والبقاء نقيّاً بينما تتكاثر حولك أسباب السقوط. ولهذا فإن التأمل فيها لا ينبغي أن يكون وعظاً سطحياً عن الصبر، بل كشفاً للطريقة التي يبني الله بها عبده المختار عبر سلسلة من الانكسارات المحكمة التي تبدو للعين البشرية تناقضاً، بينما هي في علم الله ترتيبٌ بالغ الدقة.

وأقول لك من البدء أخي القارئ: إن من أعظم ما يُتدبَّر في سورة يوسف أنها السورة التي تُعَلِّمُك أن التدبير الإلهي قد يمرّ بك في صورة ما كنت تظنه تعطيلاً لك.

فإلقاء يوسف في الجب لم يكن نهاية طريقه، بل كان أول نقلٍ له من سعة الحنان إلى مدرسة الاصطفاء. وبيعه عبدًا لم يكن سقوطًا اجتماعيًا، بل كان إدخالًا له إلى الجغرافيا التي سيقع فيها التمكين. ودخوله السجن لم يكن تعطيلاً لمسيرته، بل كان إرجاءً محسوبًا حتى ينضج أوان ظهوره. كأن السورة كلها تقول لك: ليس كل ما يُؤخَّرُك عن رغبتك يؤخَّرُك عن قدرك، بل قد يكون هو الطريق الوحيد إليه.

ومن هنا تبدأ العظمة المزلزلة في مطلع السورة.

قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف: ٣].

وليس معنى هذا الحسن أنه الأجمل من جهة التشويق فقط، بل الأحسن لأنه أكثر القصص كشفًا عن الطريقة التي يعمل بها الله في عالم البشر من وراء التقلبات. فهو قصص حسن في بنائه، حسن في منطقته، حسن في أثره، حسن في انتقالاته، حسن في خاتمته، وحسن — وهذا هو الأهم — في أنه يعلمك أن التاريخ إذا دخلته العناية الإلهية صار الألم نفسه جزءًا من الجمال الكلي، وإن بدا في لحظته قاسيًا موجعًا.

ثم تأتي الرؤيا: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف: ٤].

وهنا يضع الله أمامك من أول السورة النهاية الكبرى، لكنه لا يكشف لك الطريق إليها. وهذه في ذاتها سنة عظيمة: الله قد يريك المعنى، لكنه لا يريك المسافة. يريك الوعد، ويحجب عنك تفصيل الطريق؛ لأنك لو رأيت الطريق

بكل آلامه ربما ضعفت عنه النفس، لكن رحمته سبحانه أن يعطيك من الضوء ما يكفي للسير، لا ما ينسف معنى الابتلاء.

وفي هذا المعنى بالذات يمكن أن نقول: إن سورة يوسف ليست سورة الرؤيا فقط، بل سورة التربية على حمل الرؤيا.

فكثيرون يُعطون صورةً جميلةً عما ينبغي أن يكونوا عليه، لكن القليل هم الذين يتحملون الكلفة النفسية والأخلاقية والوجودية للوصول إليها. يوسف لم يصل إلى السجود في الرؤيا إلا بعد أن ذاق الجب، والسُّخرة، والمرادة، والسجن، والغربة، ووحشة الظلم، وامتحان القوة، ثم امتحان الصبح بعد القوة. فكأن السورة تقول: الوصول إلى المعنى ليس هبةً مجانيةً، بل أهليةٌ تُبنى.

ثم انظر إلى قول يعقوب عليه السلام: {لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} [يوسف: ٥].

هذا ليس مجرد تحذير أبوي من الحسد، بل تعليم قرآني بالغ العمق: ليست كل بشارة تُعلن، وليست كل منحة تُعرض على الناس، وليست كل حقيقة في داخلك يُصلح لها الهواء العام.

هناك معانٍ إذا خرجت مبكرًا أفسدتها النفوس المريضة، لا لأنها تملك أن تهزم قدر الله، ولكن لأنها تصبح جزءًا من الامتحان الذي يختبر الله به حامل تلك البشرى. فالسورة منذ بدايتها تؤسس لفقه عظيم: فقه الكتمان الناضج.

ليس كل ما في قلبك يصلح للنشر، ولا كل ما رأيته من لطف الله بك يحتمل عيون الناس، لأن بعض العيون لا تنظر لتبارك، بل لتتقض.

ثم تمضي السورة لتكشف شيئاً مُراً جداً في الاجتماع الإنساني، وهو أن أقرب الناس إليك قد يكونون أول من يضيق بما أودع الله فيك.

إخوة يوسف لم يكرهوا يوسف لأنه ظالم، بل لأنه محبوب.

لم يضيقوا من شره، بل من نوره، وهذه من أقسى حقائق الحياة: بعض الناس لا يؤذيك لأنك آديته، بل لأن حضورك يفضح نقصه، واصطفائك يوقظ حسده، وقربك من القلوب يكشف عجزه عن نيل ذلك القرب.

ولهذا قالت السورة: {لْيُؤْسِفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مَنَّا} [يوسف: ٨].

إنها أزمة قلبية قبل أن تكون أزمة أخلاقية؛ أزمة شعور بالمزاحمة على المحبة، وحين لا تُهذَّب النفوس من الداخل تتحول الحاجة إلى عدل المحبة إلى مشروع جريمة.

ومن أعجب ما في السورة أن الكيد بدأ داخل البيت، لا خارجه.

وهذا يعلمك أن الإنسان لا يُبتلى فقط من الغرباء، بل قد يكون اختباره الأكبر من الدائرة التي ظنها مأمنه الأول.

لكن المعنى الأرفع هنا أن الله إذا أراد أن يخرج عبداً على عينه، فإنه لا يجعله ابن الظروف الآمنة، بل ابن العناية التي تحفظه وسط انكسار المآوي.

ثم انظر إلى مشهد الجب.

الجب في الظاهر حفرة إسقاط، لكنه في الحقيقة أول محراب خلوة بين يوسف وربه بعيداً عن حنان الأب، هناك يبدأ الانفصال التربوي، هناك يتعلم القلب أن الأمان الحقيقي ليس في حضن البشر، ولو كانوا أنبياء، بل في حفظ الله. ولذلك جاءت الإشارة العجيبة:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف: ١٥].

إنها لحظة مذهلة: صبي في قاع الجب، في قمة الضعف، وفي الوقت نفسه يتلقى وعداً عن مستقبل سيقف فيه أمام من ألقوه.

كأن الله يقول له: لا تقرأ موضعك من جدران الجب، بل اقرأ من الوحي الذي نزل عليك فيه.

وهذا من أعظم ما في السورة: أن الحقيقة ليست هي ما تراه العين في اللحظة، بل ما يريده الله من وراء اللحظة.

ثم يأتي القميص الأول.

وأنا أرى أن سورة يوسف من أعجب السور في رمزية القميص؛ فالقميص فيها ليس ثوباً فقط، بل شاهداً على تحولات القدر.

جاء القميص أولاً بالدم الكذب: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} [يوسف: ١٨].

فكان القميص شاهداً على الجريمة لا على الموت.

ثم جاء القميص الثاني ممزقاً من دبر، فكان شاهداً على براءة يوسف من مراودة امرأة العزيز.

ثم جاء القميص الثالث في آخر السورة، يُلقى على وجه يعقوب فيرتد بصيراً.

ما معنى هذا التكرار؟

كأن السورة تقول: ما جُعل يوماً أداة للتلبيس سيجعله الله يوماً أداة للتجلي.

القميص الذي استُخدم في التزوير، والقميص الذي شهد على البراءة، والقميص الذي عاد بالنور إلى عين الأب؛ كلها حلقات في معنى واحد: أن الله لا يضيع الشواهد، بل يدخرها ليظهر بها الحق في أوانه.

ثم ندخل إلى بيت العزيز، فنجد منعطفاً آخر.

يوسف خرج من فتنة الأذى الجسدي إلى فتنة الإغراء، وهذا عجيب جداً؛ لأن كثيراً من الناس يظنون أن أشد الفتن هي الألم، مع أن بعض الآلام أهون من بعض اللذائذ المحرمة، فالألم قد يجمعك على الله، أما اللذة الحرام فقد تسرقك من نفسك وأنت مبتسم، ولهذا كان امتحان المراودة في السورة من أرفع مواضع الكشف عن معدن يوسف.

قال تعالى: {وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ} [يوسف: ٢٣].

ليس المشهد مشهد شهوة مجردة، بل مشهد اكتمال أسباب السقوط: غربة، وشباب، وعزوبة، ومراودة، وإغلاق أبواب، ومكانة اجتماعية للطرف الآخر، وأمان من الفضيحة في الظاهر، أي إن كل العناصر التي تضعف النفوس كانت حاضرة، ومع ذلك قال: {مَعَاذَ اللَّهِ} [يوسف: ٢٣].

وهنا تتجلى العبقرية الإيمانية للسورة: يوسف لم يبدأ بتحليل المكسب والخسارة، ولم يقل سأوازن، ولم يدخل في جدل نفسي طويل، بل اعتصم أولاً بالله.

فالعبد إذا دخل معصيةً مكتملة الأدوات، فلن ينقذه ذكاؤه بقدر ما ينقذه صدق الاستعاذة.

إن "معاذ الله" هنا ليست مجرد لفظة؛ إنها إعلان هوية: أنا لست متروكاً لهوأي، أنا لي ربُّ ألوذ به.

ثم تأتي الآية العظيمة: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤].

لاحظ: لم يقل لنصرفه عن السوء، بل لنصرف عنه السوء.

وهنا سرٌّ رفيع من أسرار السلوك: هناك عبد إذا صدق مع الله لا يقتصر الأمر فيه على أن يقاوم الشر، بل يصبح من لطف الله به أن تُصرف عنه أسبابه، أو يُقَدَّف في قلبه من النور والخشية ما يجعل الفتنة نفسها تنكسر عند عتبة روحه.

فالإنسان المخلص ليس فقط من ينتصر بعد حرب طويلة، بل من يتولاه الله بعناية خاصة تحفظ عليه داخله حتى في مواضع الزلل.

ثم إن السورة لا تكتفي بإبراز عفة يوسف، بل ترفع العفة إلى مقام أعلى: مقام اختيار السجن على التلوث الداخلي.

قال: { رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } [يوسف: ٣٣].

يا لها من آية تهز القلب هزًّا.

إنها تقول لك: قد يبلغ المؤمن من صفاء البصيرة أن يرى الحرية مع الخطيئة سجنًا، ويرى السجن مع الطهارة نجاة.

وكم في الناس من خارج الأسوار وهو مسجون لشهوته، وكم من مبتلى في تضيق ظاهر لكنه في سعة داخلية لا تملكها القصور.

هذه الآية وحدها تبني فلسفة كاملة في معنى الكرامة: أن الإنسان ليس مكرّمًا لأنه قادر على ما يشتهي، بل لأنه قادر على أن يرفض ما يهينه ولو كلفه الرفض ألمًا كبيرًا.

ثم يدخل يوسف السجن، ولكن السورة تفاجئك هنا بمفتاح آخر: يوسف لا يتعطل أخلاقيًا في المحنة.

كثيرون إذا ظلموا انكمشوا على جراحهم وصاروا أسرى أذاهم، أما يوسف فبقي نافعًا، حاضرًا، مبادرًا، مفسرًا، داعيًا، محسنًا.

حتى أهل السجن قالوا: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٣٦].

لم يقولوا: من المظلومين، ولا من المقهورين، ولا من المنكسرين، مع أن ذلك كله كان واقعاً، لكن الذي ظهر للناس من يوسف لم يكن جرحه، بل إحسانه.

وهنا درس عظيم جداً: ليس أعظم الناس من لم يُظلم، بل من لم يسمح لظلمه أن يفسد رسالته.

وفي السجن يكشف الله عن وجه آخر من وجوه اصطفائه، وهو التأويل.

لكن يوسف لا يستعرض موهبته بوصفها براعة عقلية، بل يربطها بالله:

{ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} [يوسف: ٣٧].

وهنا يظهر أدب الأنبياء والربانيين: الموهبة عندهم لا تُنتج الأنا، بل تُنتج العبودية، كلما اتسع العلم الحقيقي في القلب، تقلص ادعاء الذات، ولهذا قبل أن يفسر الرؤيا دعا إلى التوحيد.

كأن السورة تقول: العقل المؤيد لا ينفصل عن الرسالة.

فليست القيمة في أن تملك مفاتيح الفهم فقط، بل في أن تعرف لمن تنسبها، وفي أي سبيل توظفها.

ثم تأتي المحنة الدقيقة الأخرى: النسيان.

حين قال يوسف للذي ظن أنه ناج: {ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} [يوسف: ٤٢]

فأنساه الشيطان ذكره عند ربه فلبث في السجن بضع سنين.

وهنا موضع تدبر دقيق جدًا، لا ينبغي أن يفهم على نحو ساذج، ليس المعنى أن الأخذ بالأسباب مذموم، ولكن السورة تدربك على أن السبب لا يحمل قلبك بعيدًا عن المسبب، فإذا شاء الله أن تتأخر النجاة، جعل حتى السبب البشري الذي علقت عليه رجاءك ينسى، لماذا؟

حتى تتعلم أن الخروج الحقيقي لا يفتحه البشر حين يشاؤون، بل حين يأذن الله.

إنها تربية شديدة الرهافة: الله لا يمنع عنك بعض الأشياء لأنه ييغضك، بل لأنه يريد أن يُنقى اعتمادك.

ثم تأتي رؤيا الملك، وهنا يبدأ التحول الكبير. لكن يوسف لا يخرج مسرعًا من السجن حين نودي إليه، بل يقول: {ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ} [يوسف: ٥٠].

وهذا من أرفع ما في السورة أخلاقًا ونفسًا وهيبة.

الإنسان المستعجل على النجاة قد يرضى بالخروج ولو ظلت التهمة عالقة، أما يوسف فلا يريد مجرد الإفراج، بل يريد ظهور الحقيقة.

كأنه يقول: أنا لا أطلب فتح الباب فقط، بل أطلب ردَّ المعنى إلى موضعه الصحيح.

وهذه منزلة رفيعة: أن تكون براءتك عندك جزءًا من رسالتك، لا مجرد مصلحة شخصية.

ثم تعترف امرأة العزيز: {الآن حَصَّصَ الْحَقُّ} [يوسف: ٥١].

تأمل هذا التعبير: “حصص”.

كأن الحق لم يأت فجأة، بل ظل يشق طريقه في صخور الكتمان حتى استقر ظاهراً لا يمكن دفنه.

وهذه سنة قرآنية كبرى: الحق قد يتأخر ظهوره، لكنه إذا كان حقًا حقًا فإنه لا يموت، بل يعمل في الخفاء حتى يبلغ لحظة انكشافه.

ولذلك فالمؤمن لا يستعجل تصديق الناس له دائمًا؛ يكفيهِ أن يكون على بينة، ثم يترك لله هندسة الظهور.

ثم يخرج يوسف، لكن السورة لا تجعله مجرد ناجٍ، بل تجعله مُمَكَّنًا.

قال: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ} [يوسف: ٥٥].

وهنا يتجلى بُعد آخر مدهش: التواضع لا يعني دفن الكفاءة.

يوسف لم يطلب المنصب لهوى سلطوي، بل لأنه يعرف أنه الأقدر على حفظ الأمانة في ظرف سيهدد الناس بالجوع.

فالسورة تُعَلِّمُك أن إعلان الكفاءة يصبح عبادة إذا كان المقصود به خدمة الحق والخلق، لا تضخيم الذات.

وفي هذا تربية عظيمة للنفوس التي تخط بين الزهد في الدنيا والزهد في المسؤولية.

ليس الزهد أن تترك موقعًا تحتاج الأمة فيه إلى أمينٍ عليم، بل الزهد أن تدخله بيدٍ نظيفة، ونيةً مستقيمة، وقلبٍ غير مملوكٍ له.

ثم يدخل الإخوة مرة أخرى على يوسف.

وهنا تبدأ مرحلة من أعمق مراحل السورة: مرحلة القدرة على التعامل مع الماضي بعد التمكن.

فكثير من الناس قد يصبرون على الأذى، لكنهم إذا قدروا لم يحسنوا حمل القدرة.

وهنا عظمة يوسف لا تظهر فقط في عفته ولا في صبره، بل في طهارته بعد القوة.

إنه لا ينتقم، ولا يذل، ولا يفضح على طريقة النفوس الصغيرة، بل يجري إخوته عبر مسار تربوي يكشفهم لأنفسهم، ويستخرج من داخلهم الاعتراف، ويعيد بناء الأسرة على أساس الحقيقة لا على أساس الإنكار المدفون.

ومن أبداع ما في السورة أن يوسف لم يكن يريد إذلالهم، بل إيقاظ ضمائرهم.

ولذلك لم يواجههم أولًا مواجهةً مباشرة، بل دبّر لهم من المواقف ما يرجعهم إلى داخلهم، حتى قالوا: {إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} [يوسف: ٩٧].

فالإنسان الرباني لا يفرح بفضيحة خصمه بقدر ما يفرح برجوعه إلى الحق.
وهنا تبلغ السورة ذروة الجمال الأخلاقي في قول يوسف: {لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ
الْيَوْمَ} [يوسف: ٩٢].

ليس مجرد عفو، بل عفو ناضج، عفو من علٍ لا من ضعف، عفو بعد انكشاف
الجريمة، وبعد امتلاك القدرة، وبعد إمكان المؤاخذه.
وهذا هو العفو الذي يشبه الأنبياء حقًا؛ لأن العفو قبل القدرة قد تداخله العجز،
أما العفو بعد القدرة فهو من علامات السمو.
لكن أرقى ما في هذه الآية أنه قال: اليوم.

كأنه يقطع سلسلة الماضي من الحضور العقابي في هذه اللحظة.
اليوم لا تثريب، اليوم لا محاكمة لما مضى، اليوم تبدأ فرصة أخرى.
وهذا يعلمك أن العفو الحقيقي ليس مجرد إسقاط عقوبة، بل فتح زمن جديد لا
يبقى فيه الماضي سوطًا مرفوعًا على الرؤوس.

ثم تأتي الخاتمة العظمى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا}
[يوسف: ١٠٠].

هنا تتحقق الرؤيا الأولى، لكن بعد كم؟ بعد رحلة كاملة من التكسير وإعادة
البناء.

وهنا المعنى المزلزل: الرؤى الربانية لا تموت بطول الطريق.

قد يمر عليها زمن حتى يظن صاحبها أنها بَعُدَتْ أو استحال تحققها، لكن إذا كانت من الله فإن الزمن لا يبطلها، بل ينضجها.

إن تحقق الرؤيا في آخر السورة ليس فقط فرحًا شخصيًا ليوسف، بل شهادة كبرى على أن الله لا ينسى وعده وإن تأخر، ولا يُسقط مقاديره لأن الطريق بدا ملتويًا في أعين البشر.

ثم يقول يوسف: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ} [يوسف: ١٠٠].

وأحسب أن هذه الآية هي من أعظم مفاتيح السورة كلها.

فاللفظ هنا ليس فقط الرحمة الرقيقة، بل التدبير الخفي الذي يمرُّ بك من حيث لا تشعر حتى يوصلك إلى ما شاء الله لك.

اللطيف لا يعمل دائمًا بالطرق الصاخبة الظاهرة، بل قد ينقلك عبر مسارات لو رأيتها مفردةً لبكيت، فإذا رأيتها مجتمعةً بعد انكشاف النهاية قلت: ما أرقَّ هذا التدبير، وما أعجب هذه الحكمة.

وسورة يوسف كلها شرحٌ واحد لجملة واحدة: إن ربي لطيف لما يشاء.

ثم انظر إلى التوحيد في ذروة التمكين.

لم يقل يوسف: هذا ثمرة صبري فقط، ولا ثمرة عبقريتي في الإدارة والتأويل، بل قال: {قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف:

١٠١].

ما أعظم هذا الأدب.

حين صار في القمة لم تسكره القمة، بل ردَّ كل شيء إلى الله.

وهنا يصل الإنسان إلى كماله الإيماني: أن لا يفسده الانكسار، ولا تفسده القوة.

ففي الشدة بقي يوسف طاهرًا، وفي التمكين بقي عبدًا.

ثم تختتم السورة بدعاء يهز القلب: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

بعد الملك، وبعد لَمَّ الشمل، وبعد ظهور البراءة، وبعد تحقق الرؤيا؛ ما الذي بقي في قلب يوسف؟

لم يبق فيه افتتان بالقصة، بل بقيت الغاية النهائية: أن أموت مسلمًا.

وهذا من أندر ما تعلمك إياه السورة: أن النجاح الحقيقي ليس أن تنجو من الجب، ولا أن تخرج من السجن، ولا أن تتولى خزائن الأرض، بل أن تخرج من الدنيا وأنت مسلمٌ لله.

كل ما قبل ذلك وسائل، وكل ما عدا ذلك أطوار، أما النهاية التي تليق بمؤمن فهي حسن الخاتمة.

ولهذا فالسورة في جوهرها لا تقول فقط: اصبر.

بل تقول: اصبر، واصمت حين يلزم الصمت، واكتم رؤياك حين يلزم الكتمان، واعتصم حين تتكاثر دواعي السقوط، وأحسن ولو كنت مجروحًا،

ولا تجعل الظلم يفسد رسالتك، ولا تجعل التأخير يفسد ثقتك، ولا تجعل القوة تفسد قلبك، ولا تجعل تحقق الرؤيا ينسيك أن الغاية الأخيرة هي الله.

ولذلك يمكن أن ألخص المدخل التأملي الكبير للسورة في هذه العبارة:

سورة يوسف هي سورة الإنسان الذي لم تقتله البئر، ولم تُفسده الشهوة، ولم تكسره التهمة، ولم يُطفئه السجن، ولم تُسكره السلطة، ولم يُقسّ قلبه الماضي؛ لأنه كان محفوظًا بلطف الله من أول الرؤيا إلى آخر الدعاء.

وهذا هو الباب الذي يمكن أن نبدأ منه كتابًا استثنائيًا حقًا.

وبسم الله، نبدأ ، نبدأ من الموضع الذي ينبغي أن يبدأ منه كل تدبر رفيع لسورة يوسف: من هندسة الابتلاء لا من ظاهر الحكاية؛ لأن من قرأ السورة بوصفها قصة مؤثرة فقط، خرج منها بعبارة جميلة، أما من قرأها بوصفها كشفًا عن طريقة الله في صناعة عباده، خرج منها ببصيرةٍ تغيّر نظرتَه إلى نفسه، وإلى أوجاعه، وإلى تأخراته، وإلى ما يسميه الناس عثراتٍ بينما هي في ميزان العناية أبوابٌ عبورٍ إلى قدرٍ أعلى.

الفصل الأول

من الرؤيا إلى الحب: كيف يبدأ الله صناعة عبده المختار

سورة يوسف من السور التي لا تسمح لك أن تقرأ الحياة قراءةً ساذجة، لأنها منذ أول مشهد تهدم التفسير السطحي للأحداث، وتبني في قلبك يقيناً آخر: أن الظاهر شيء، والتدبير الإلهي شيء آخر، وأن المسافة بينهما هي موضع التربية، وموضع الامتحان، وموضع التزكية، وموضع اكتشاف حقيقة الإيمان في القلب.

تبدأ السورة برؤيا، لا بواقع.

وهذا البدء ليس عارضاً، بل مقصودٌ في غاية الدقة؛ لأن الله يريد أن يقول لك من أول الطريق: إن حياة هذا العبد لن تُقرأ من أرضها فقط، بل من سقفاها الغيبي أيضاً.

ليس يوسف مجرد فتى تتحرك به الظروف، بل إن فوق حركته وعداً سابقاً، وإشارةً متقدمة، ومعنىً سيأتي، وإن لم تتضح خرائط الوصول إليه بعد.

قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يوسف: ٤].

هذه الآية لا تمنحك مجرد صورة جميلة عن مستقبل يوسف، بل تكشف لك سنةً من أعمق سنن الله في تربية عباده: قد يبدأ الله معك بإعطائك لمحةً من المعنى قبل أن يدخلك في نفق الوسائل، يريك النهاية ولا يريك الطريق، يفتح

في روحك نافذةً على ما يريد لك أن تصير إليه، لكنه لا يسلمك خرائط الألم الذي ستعبره؛ لأنك لو رأيت الطريق كله بما فيه من جبٍّ وغربةٍ وبيعٍ وفتنةٍ وسجنٍ، ربما اضطربت النفس من هوله، لكن الله برحمته يجعل الوعد سابقاً، لتصير الرؤيا بذرة صبرٍ كامنة في عمق القلب، تُغذي احتماله حين يتكاثف عليه الظلام.

وهنا أول مفتاح عظيم في السورة: الرؤيا ليست تشريعاً مجرداً، بل تكليفٌ مستتر.

فكثير من الناس يظنون أن الإشارات الربانية المضيئة في حياتهم هي محضُ إكرامٍ لطيف، ولا ينتبهون إلى أن كل اصطفاء حقيقي يجزّ وراءه مدرسة من التهذيب، وأن كل ومضة عالية من المعنى تحتاج إلى أهليةٍ روحية وأخلاقية ونفسية حتى يحملها صاحبها بجدارة.

يوسف لم يُعطِ الرؤيا ليُسَرَّ بها فقط، بل أُعطيها ليبدأ منذ ذلك الحين الدخول في المسار الذي سيصنعه على عين الله حتى يغدو أهلاً لتحقيقها.

ولذلك فإن أباه يعقوب عليه السلام لم يتلقَّ الرؤيا بوصفها خبراً مبهجاً فقط، بل تلقاها بوصفها أمراً يحتاج إلى وعي وحفظ وكتمان. قال: {يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} [يوسف: ٥].

وهنا يفتح القرآن باباً من أبواب الفقه النفسي والاجتماعي بالغ الرهافة: ليس كل نورٍ في حياتك يصلح أن تعرضه على الجميع، ليست كل بشارة تُذاع، ولا كل منحة تُكشف، ولا كل فتحٍ داخليٍّ يُقال، لأن الناس ليسوا سواءً في

قدرتهم على تلقّي فضل الله على غيرهم. في القلوب أمراضٌ خفية، وفي النفوس فراغاتٌ مؤلمة، وبعض الناس لا يستطيع أن يرى اصطفاء الله لغيره إلا بوصفه خصمًا من حظّه هو، لا فضلًا من الله يؤتيه من يشاء.

وهكذا تعلّمك السورة من أولها أن من النضج الإيماني أن تعرف متى تتكلم، ومتى تسكت، ومتى تُظهر، ومتى تكتّم.

وليس الكتمان هنا خوفًا مرضيًا من الناس، بل حكمةٌ في التعامل مع طبائع النفوس، وفهمٌ أن بعض المعاني إذا خرجت قبل أوانها صارت مادةً للكيد، لا وقودًا للبناء.

وهنا ينبغي أن نتوقف طويلاً عند هذه الحقيقة:

إن يعقوب لم يقل ليوسف: لا تقصص رؤياك لأنهم سيبطلون قدر الله، فهذا لا يكون؛ بل قال: {فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا}. أي إن قدر الله نافذ، لكن الله قد يجعل من كيد الناس بعضَ أدوات الطريق نفسه، وهذه من ألطف المعاني وأدقها: أن أذى الناس لا يقع خارج سلطان الله، بل قد يدخل في نسيج التقدير، لا ليغلب الوعد، بل ليشارك — على رغم قصد أصحابه — في إنضاج صاحبه وتهيئته لما وعد به.

ثم تأتي الآية الجامعة: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} [يوسف: ٦].

هذه الآية من أخطر الآيات في بناء وعيك بالسورة؛ لأنها تعلن باكراً أن يوسف داخلٌ في مسار الاجتباء، والاجتباء ليس اصطفاءً رخوًا ناعمًا كما قد

تتخيله النفوس، بل هو اختيارٌ يقتضي إعدادًا خاصًا، إن الله إذا اجتنب عبداً، لم يتركه لسطحية الحياة، بل أدخله في مناهج من التربية لا يفهمها الناس في أولها، وقد لا يفهمها العبد نفسه إلا بعد أن تنكشف له الحكمة في آخر المسير. والعجيب أن هذه البشارة بالاجتباء تسبق مباشرةً مشهد الكيد.

وهذا يكاد يكون قانوناً في السورة: كلما ارتفع المعنى في التقدير، ثقلت كلفة الطريق إليه، ليس لأن الله يعسر على عبده عبثاً، بل لأن المقامات العالية لا يحملها التكوين السطحي.

يوسف سيصير رجل رؤيا، ورجل تأويل، ورجل تدبير، ورجل طهارة، ورجل سلطان، ورجل عفو؛ ومثل هذا البناء لا يخرج الترف، ولا تصنعه الحياة المستقيمة الخالية من الصدمات، بل تخرجه مدرسة القدر حين تتعاقب عليه التعرية والاختبار والحفظ الخفي.

ثم يفتح القرآن فجأة نافذةً على ما في صدور الإخوة: {لْيُؤْسِفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا مَنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} [يوسف: ٨].

وهنا تدخل السورة إلى أكثر المناطق هشاشةً في النفس البشرية: منطقة الجوع إلى المحبة.

فكثيرٌ من الشرور الكبرى لا تنشأ أولاً من فلسفات فاسدة، بل من جوعٍ نفسيٍّ لم يُهدَّب، إنهم لم يبدأوا من منطق العدالة، بل من منطق المقارنة، لم يقولوا: نحن مقصرون فلنرتفع، بل قالوا: لماذا يُحبّ غيرنا أكثر؟ ومن هنا تبدأ

الانحرافات الكبرى: حين يتحول سؤال “كيف أركو؟” إلى سؤال “كيف أزيح من ينافسني في المكانة؟”.

وسورة يوسف دقيقة جدًا في هذا الموضع؛ لأنها لا تقدم لك الإخوة على أنهم وحوشٌ مجردة، بل على أنهم نفوسٌ دخلها فساد المقارنة حتى أعمى فيها فطرة الأخوة، وأفسد فيها ميزان الرحمة، وصير وجود يوسف نفسه — لا فعله — عبئًا يريدون التخلص منه.

وهذه واحدة من أقسى حقائق الاجتماع الإنساني: قد يؤدي الإنسان لا لأنه أساء، بل لأن خيرًا فيه أيقظ سوءًا في غيره.

وهنا يظهر مرة أخرى الفرق بين منطق السماء ومنطق النفوس.

النفوس المحجوبة ترى المحبة رزقًا محدودًا، فإذا نال غيرها منه شيئًا ظنت أنه انتزع من حصتها، أما منطق الإيمان فيرى الفضل عطاءً ربانيًا واسعًا، ويرى أن علاج ألم النفس لا يكون بإفساد موضع الفضل في غيرها، بل بإصلاح الداخل الذي يضيق بالخير إذا لم يكن له.

ثم يبلغ التوتر أقصاه في قولهم: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} [يوسف: ٩].

وهذا من أوجع ما في السورة؛ لأن القرآن هنا يكشف كيف يمكن لفكرة صغيرة من الحسد أن تنمو حتى تبلغ تصور القتل أو الإلغاء، يبدأ الأمر بشعور بالضيق، ثم يتحول إلى تفسير مريض للواقع، ثم إلى اجتماع على رواية داخلية تبرر الإقصاء، ثم إلى قرار، وهذه سنة نفسية خطيرة للغاية:

حين لا يعالج الإنسان بواكير الظلمة في قلبه، فإنها لا تبقى خواطر، بل قد تتطور إلى مشاريع فعلية.

ومع ذلك فالسورة، بدقتها العجيبة، تريك أن حتى داخل الاجتماع الآثم تبقى بقايا من تفاوت الفساد.

قال قائل منهم: {لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ} [يوسف: ١٠].

كأن الشر نفسه درجات، وكأن بعض النفوس، وإن شاركت في الجناية، لا تبلغ إلى الدرجة القصوى من القسوة. وهذا لا يبرئها، لكنه يكشف لك أن البشر لا يتحولون من البياض إلى السواد دفعةً واحدة، بل تتفاوت فيهم ظلماتهم، وتبقى في بعضهم بقايا ترددٍ أو تخفيف، وإن كانت لا تنقذهم من أصل الجرم.

ثم تبدأ الخطة.

وهنا يدهشك القرآن مرة أخرى، لا بالفعل فقط، بل باللغة التي صيغ بها الفعل. انظر كيف تحايلوا على الأب، وكيف لبسوا ثياب النصيحة، وكيف خاطبوه بمنطق الحرص على يوسف.

إن الشر إذا أراد أن يمرّ، كثيرًا ما يمرّ من بوابة اللغة الأخلاقية.

كم من جريمة في الأرض بدأت بعبارات تبدو ناصحة، وكم من أذى لبس هيئة الرحمة، وكم من طعنات دخلت تحت لافتات البر والخير والمصلحة.

ولهذا فالسورة لا تعلمك فقط الحذر من الشر الصريح، بل من الشر الذي يحسن تزيين نفسه بالعبارات النظيفة.

ثم تأتي لحظة الجب.

وهنا، يا صديقي، ينبغي أن نتباطأ جدًّا، لأن الجب ليس حدثًا عابرًا في السورة، بل هو أول محراب عميق تتشكل فيه شخصية يوسف بعيدًا عن الحضن الأبوي.

كان قبل الجب ابنًا في بيت نبي، تحوطه عاطفة الأب، وتدفعه بيئة الرسالة. لكن لحظة الجب هي لحظة الانتقال من الأمان العائلي إلى الحفظ الإلهي المباشر، من هنا يبدأ الله يقول لعبده المختار، ولكن بالفعل لا بالعبرة: لن أبقيك متكئًا على الوسائط التي تحبها، سأعلمك أن لك ربًّا يكفيك حين تنقطع كل الأيدي.

والجب في ظاهره حفرة إسقاط، لكنه في حقيقته أول مختبر توحيدي عميق في حياة يوسف.

في ذلك الظلام، في تلك الوحشة، في تلك اللحظة التي يبدو فيها كل شيء منقلبًا على وعد الرؤيا، يأتي الوحي: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف: ١٥].

ما أروع هذه الآية، وما أهيبها.

إنها تقول لك إن الله قد يختار أكثر لحظاتك ظلمةً ليضع فيها في قلبك أول بذرة صلبة من الطمأنينة بالمستقبل. لا يخرجها أولاً من الجب، بل يوحى إليه فيه. لا يبدل الواقع مباشرة، بل يسكب في قلبه ما يجعله أكبر من الواقع.

وهذا من أعظم أسرار التربية الإيمانية: أن النجاة ليست دائماً في تغيير الموضع فوراً، بل أحياناً في إنزال معنى من السماء يجعل القلب قادراً على احتمال الموضع حتى يأتي الفرج.

لاحظ جمال التركيب: {لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا}.

أي إنك ستقف يوماً موقفاً آخر تماماً، لا من موقع الملقى به، بل من موقع العالم بما حدث، القادر على الإخبار به، الثابت أمام من صنعوه.

كأن الله يفتح له من داخل القاع نافذةً على العلو، ويقول له: لا تجعل تعريفك لنفسك من هذه اللحظة وحدها، فهذه ليست حقيقتك الكاملة، بل فصلٌ من فصول إعدادك.

وهنا ينشأ في سورة يوسف معنى بالغ الجلال:

المؤمن قد يعيش مرحلةً لا تشبه وعده أبداً، ومع ذلك تكون هي الطريق الأدق إليه.

ما أبعد الجب عن مشهد السجود في الرؤيا، ولكن ما أقربه إليه في ميزان القدر.

فالناس يقيسون قرب الأشياء من نتائجها بظاهر الخطوط المستقيمة، أما الله فيربي عباده أحياناً بطريق يبدو ملتوياً في ظاهره، لكنه الأشد مباشرةً في حقيقته؛ لأنه يمرّ عبر المناطق التي لا بد من إصلاحها في الداخل قبل التمكين في الخارج.

ثم يعود الإخوة بالقميص، وبالدم الكذب، وبالرواية الملفقة.

{وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} [يوسف: ١٨].

وهنا تظهر بصيرة يعقوب عليه السلام، لا في أنه كشف الكذب فحسب، بل في الطريقة التي تلقى بها الجرح. لم ينهر، ولم يُسقطه الألم في الفوضى، ولم يجعل الصدمة تخرجه عن مقام العبودية، بل قال: **{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨].**

وهذه الآية وحدها تبني في النفس جبلاً من الفهم.

فالصبر الجميل ليس هو الصبر الخالي من الوجد، بل الصبر الذي لا يفسد الوجد معه صلة القلب بالله، هو الصبر الذي لا ينقلب إلى اعتراض، ولا إلى انهيار يبدد المعنى، ولا إلى شكوى تخرج من مقام الأدب مع الله.

يعقوب هنا لا ينفي الحزن، ولا يمثل التجلد الجاف، بل يضع الحزن في مكانه الصحيح: ألم في القلب، لكن الاستعانة بالله باقية، والثقة به باقية، والانهيار أمام الكذب البشري غير مسموح به.

وهنا تتقابل في أول السورة شخصيتان عظيمتان: يوسف في الجب، ويعقوب فوق الأرض.

الأول يتلقى وحيًا يثبتته في الظلمة، والثاني يطلق عبارة الصبر الجميل في الفقد، وكأن السورة من أولها تريد أن تقول لك إن مدرسة الاصطفاء لا تبني فردًا واحدًا فقط، بل تبني حوله أيضًا القلوب التي ستشارك في حمل الامتحان. يوسف يُربّى في الغياب، ويعقوب يُربّى في الفقد، وكلاهما يسير في خطّ واحد من العناية الإلهية وإن اختلفت زاوية الاختبار.

ومن هنا يمكن أن نقرر هذه الحقيقة المركزية في هذا الفصل:

سورة يوسف لا تبدأ بحدث الغيرة، ولا بالجب، ولا حتى بالرؤيا وحدها، بل تبدأ بإعلان أن الله إذا أراد عبدًا لأمرٍ كبير، فإنه يزرع فيه أولاً بذرة المعنى، ثم يعرضه لما يكسر اعتماده على غير الله، ثم يحفظه في قلب التهديد، ثم يمدّه من الغيب بما يجعله أقدر على حمل مستقبله من أن تحمله له الظروف السهلة.

إن الجب — في القراءة السطحية — مأساة.

أما في القراءة الربانية فهو بداية التحرير.

تحريرٌ ليوسف من الاعتماد على المألوف، وتحريرٌ له من السذاجة تجاه قسوة الحياة، وتحريرٌ له من التصور الطفولي لمسار الوعد، وتحريرٌ له من أن يكون ابن البيئة فقط؛ ليصير بالتدريج ابن العناية.

وفي هذا الموضع بالذات تشرق على القلب فائدة تربوية هائلة لكل من يمشي في حياةٍ اختلطت عليه فيها الإشارات:

قد تمرّ بك لحظةٌ تشعر فيها أن ما يحدث لك يناقض ما كنت تظنه من فضل الله عليك، وأن الطريق قد انكسر، وأن الوعد قد ابتعد، وأن الأشياء لم تعد مفهومة. وسورة يوسف تقول لك من أولها: تمهّل، فقد تكون الآن في الجب الذي يُكتب منه أول سطرٍ حقيقي في مستقبلك.

ليس كل سقوطٍ هلاكًا، وليس كل عزلٍ طردًا، وليس كل فقدٍ نهاية. بعض ما تظنه قطعًا هو في الحقيقة فصلٌ مقصود من فصول إعادة الصياغة.

ولذلك فإن من لم يفهم الجب فهمًا صحيحًا، لن يفهم السورة كلها فهمًا صحيحًا.

لأن الجب هو المفتاح الأول لمنطقها:

أن العناية قد تبدأ في هيئةٍ تخلي،

وأن الحفظ قد يعمل تحت سطح الكارثة،

وأن الوعد قد يكون في أوج حضوره حين يبدو للناس في أقصى غيابه.

خلاصة الفصل

يمكن أن نوجز روح هذا الفصل في العبارة التالية:

إن الله إذا أراد أن يصنع عبدًا على عينه، لم يكتفِ بأن يبشّره بالمعنى، بل أدخله مدرسةً تكسر فيه الاعتماد على السهولة، وتعلّمه أن يحمل الرؤيا بقلبٍ

لم تعد تصنعه العافية وحدها، بل صاغته الوحشة، وثبته الوحي، وربّاه الألم تحت عين الله.

مفتاح الفصل

الرؤيا في سورة يوسف ليست وعدًا مريحًا، بل بداية تربية شاقة جميلة، والجب ليس انقطاعًا عن الوعد، بل أول الطريق الحقيقي إليه.

نمضي الآن إلى الفصل الثاني، وفيه ندخل إلى: من الجب إلى السوق: حين يتحول الإنسان في أعين الناس إلى سلعة، بينما هو في عين الله مشروع اصطفاء.

الفصل الثاني

من الجب إلى السوق: حين يتحول الإنسان في أعين الناس إلى سلعة،
بينما هو في عين الله مشروع اصطفاء

من أوجع ما تكشفه سورة يوسف أن الإنسان قد يمرّ في بعض مراحل حياته بما يشبه الانتقاص الكامل من قيمته؛ لا في نفسه فقط، بل في أعين الناس أيضاً، فبعد أن كان يوسف في بيت النبوة، محوطاً بعناية الأب، ومحمولاً على محبة ظاهرة، انتهى به الأمر — في ظاهر المشهد — إلى أن يُنتشل من الجب لا بوصفه ابن نبي، ولا بوصفه صاحب رؤيا، ولا بوصفه إنساناً له تاريخ ومعنى، بل بوصفه شيئاً عُثر عليه، يمكن أن يدخل في منطق التداول والبيع والشراء.

وهنا تبلغ السورة في بناء الوعي مبلغاً عجيّباً؛ لأنها تريد أن تُسقط في قلبك وهماً خطيراً يعيشه كثير من الناس، وهو أن القيمة الحقيقية للإنسان هي ما يظهر له من تقدير الآخرين.

وسورة يوسف تقول لك من غير تصريح مباشر: هذا وهمّ فادح.

فقد يُهان الإنسان في أعين الخلق وهو عند الله في موضع إعدادٍ رفيع، وقد يُختزل إلى رقمٍ أو سلعةٍ أو وظيفةٍ أو تهمةٍ أو جسدٍ أو منفعة، بينما هو في علم الله أوسع بكثير مما تراه السوق، وأشرف بكثير مما تفهمه العيون السطحية.

قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [يوسف: ١٩].

تأمل التعبير: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً}.

يا لها من عبارة موجعة، ويا لها من كشفٍ دقيق لطبيعة العالم حين تتفصل علاقته بالإنسان عن القيم العليا.

فالإنسان هنا لم يُستقبل بوصفه روحًا، ولا بوصفه مظلومًا، ولا بوصفه فتىً نجا من الموت، بل بوصفه بضاعة.

وهذا التحول من “إنسان” إلى “بضاعة” هو واحد من أقسى أوجه السقوط في النظر البشري؛ لأنه اختزال للكينونة في المنفعة، واختزال للروح في القيمة السوقية، واختزال للمعنى في قابلية التداول.

وهنا نلمح من خلال السورة قانونًا اجتماعيًا مهيبًا:

العالم حين يفقد نوره الأخلاقي يبدأ في تحويل البشر إلى أشياء.

مرةً يحولهم إلى أرقام، ومرةً إلى أدوات، ومرةً إلى مصالح، ومرةً إلى درجات في سلم النفوذ، ومرةً إلى أجساد، ومرةً إلى أصوات انتخابية، ومرةً إلى عناوين في الأخبار، ومرةً إلى فرص استهلاك.

لكن القرآن، وهو يمرّ بك على هذا المشهد، لا يتركك في أسره، بل يوقظك إلى أن يوسف وإن صار في أعينهم بضاعة، فإنه لم يصر كذلك في ميزان الله قط.

لقد ظلّ يوسف يوسف، مهما تبدلت أوصاف السوق.

وهنا يتولد معنى بالغ الجمال:

قد تتغير أوصافك في ألسنة الناس، لكن حقيقتك عند الله لا تتبدل بتبدل تسمياتهم لك.

يسمونك فاشلاً، أو زائداً، أو مُهمَّشاً، أو لا وزن لك، أو تابعاً، أو بلا مستقبل، بينما يكون الله قد بدأ فيك مشروعاً لم تنتضج ساعته بعد.

وهذا من ألطف ما تبنيه سورة يوسف في النفس: أن لا تجعل تعريفك لذاتك مرهوناً بلحظة امتهانك، ولا بعبارات العابرين، ولا بظروفك المتدنية، لأنك لو فعلت ذلك خسرت بصيرتك، وصرت تنظر إلى نفسك بعين السوق لا بعين القدر.

ثم يقول تعالى: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ^{٢٠} وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [يوسف: ٢٠].

هذه من أكثر الآيات إيلاًماً من الناحية النفسية والمعنوية.

{بِثَمَنٍ بَخْسٍ}، لا بثمان كبير حتى في منطق التجارة، بل بثمان بخس.

{دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ}، لا مشقة في عدّها، ولا قيمة تُذكر في كثرتها.

{وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ}، أي لم يروه شيئاً يستحق التمسك به أصلاً.

وهنا تتجلى مأساة من نوع خاص:

ليس فقط أن يُظلم الإنسان، بل أن يُخَس.

وليس فقط أن يُخَس، بل أن يُزهد فيه.

وليس فقط أن يُزهد فيه، بل أن يقع ذلك وهو حاملٌ في داخله مستقبلاً لا يخطر لهم على بال.

وهذه الآية وحدها تكفي لبناء فصل كامل في فهم الحياة:

كم من إنسان مرّ في مراحل من عمره كان فيها “ثمنه” في أعين الناس بخساً جداً.

لم يروا فكره، ولا طاقته، ولا جوهره، ولا أفقه، ولا معناه، ولا قابليته للامتداد؛ رأوا مجرد حالة عابرة، أو ظرفاً ضعيفاً، أو هيئة هامشية، أو موضعاً اجتماعياً متدنياً، فحكموا عليه من خلال لحظته، بينما كانت حقيقته أوسع من ذلك بكثير.

وفي هذه الآية يُعطيك القرآن درساً مضاداً للقيم السائدة في عالم البشر:

قلّة تقدير الناس لك ليست دليلاً على قلّة قدرك عند الله.

بل قد يكون العكس أحياناً هو الصحيح؛ لأن الله يخفي بعض عبادِه عن الأعين، أو يمررهم عبر مراحل لا يُحتفى فيها بهم، حتى يربّي فيهم شيئاً لا ينبت في الضوء الزائف ولا تحت تصفيق الناس.

وما أعمق هذا المعنى تربوياً ونفسياً.

فإن من أشد ما يُضعف الإنسان أن يربط إحساسه بقيمته بتصفيق العالم أو اعترافه السريع. وإذا تأخر هذا الاعتراف، أو جاء البخس، أو جاء الزهد، أو جاءت المعاملة الفاترة، اهتزت نفسه، وربما ظن أن مكانته عند الله قد سقطت كما سقطت عند الناس.

وسورة يوسف تقطع هذا الوهم من جذره:

لقد بُخس يوسف، وزُهد فيه، وبيع كما تباع الأشياء، ومع ذلك لم يكن هذا شيئاً من سقوط منزلته الحقيقية، بل كان فقط فصلاً من فصول الطريق.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى سرِّ قرآني عجيب:

إن الآيات لا تنتقل لك الحادثة في برود تاريخي، بل تحيطها دائماً بضمير العناية.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}.

ليست جملة اعتراضية عابرة، بل هي منارات السورة.

كأن الله يقول: لا تظن أن ما جرى ليوسف كان في فراغٍ من علمي، أو في غيبةٍ عن بصري، أو أنه وقع لأن الناس أقوى من الحفظ الإلهي؛ بل كل ذلك واقعٌ في مرأى الله، داخلٌ في سلطانه، محسوبٌ في علمه، غير خارج عن غايته.

والإنسان إذا استقر هذا المعنى في قلبه تغير وجه احتماله للأذى؛ لأنه لم يعد يرى نفسه منسياً في زحام الظالمين، بل مرثياً من الله، محفوظاً بعلمه، وإن لم يفهم سرّ ما يجري بعد.

ثم يدخل يوسف بيت العزيز.

وهنا يحدث التحول التالي في هندسة السورة.

فبعد مرحلة “الجب”، وهي مرحلة الخلع الأول من الأمان، وبعد مرحلة “السوق”، وهي مرحلة البخس والاختزال، تأتي مرحلة الثالثة: مرحلة الإدخال إلى الموضع الذي سيجري فيه الإعداد العميق.

قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ^{٢١} عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} [يوسف: ٢١].

إنها لحظة عجيبة جداً.

فبعد الإهانة السوقية، وبعد البخس، وبعد الزهد، يدخل يوسف بيتاً يُقال فيه: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ}.

كأن السورة تريد أن تُريك أن لطف الله قد يعمل داخل المسار نفسه من غير أن يرفع عنك الابتلاء تماماً.

فهو لم يُرجع يوسف إلى أبيه بعد، ولم يكشف الحقيقة بعد، ولم يُنهِ الغربة بعد، لكنه جعل له داخل الغربة موضعاً أخفّ، وداخل الامتحان موضعاً أكرم، وداخل الغياب حضناً اجتماعياً جديداً يتهيأ فيه للمرحلة التالية.

وهذا من دقائق التربية الإلهية:

الله لا ينقل عبده دائماً من الكسر إلى الجبر الكامل دفعةً واحدة، بل قد يُدخله في مراحل تخفيف، ومنازل تهيئة، ومحطات إعداد، حتى إذا جاءت اللحظة الكبرى كان قد صار شيئاً آخر.

إن كثيراً من الناس يريدون من الله فرجاً كاملاً فوراً، بينما سنة الله في التربية أحياناً أن يعطيك داخل الامتحان نفسه “فسحات” صغيرة من اللطف، لا تنتهي القصة، بل لتستطيع مواصلة الطريق.

ثم تأتي الآية التي تُعدّ من أعظم مفاتيح السورة في بناء معناها العميق: **{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ٢١].**

تأمل هذا جيداً:

الآية تربط التمكين بما قبلها، لا بما بعد اكتمال الملك فقط.

أي إن بدايات التمكين لم تبدأ حين جلس يوسف على خزائن الأرض، بل بدأت حين دخل بيت العزيز عبداً.

وهذا يهدم وهماً كبيراً من أوهامنا في قراءة النهايات؛ إذ نظن أن التمكين لا يكون إلا في مشهده الختامي الظاهر، بينما القرآن يعلمك أن التمكين الحقيقي يبدأ من مواضع لا يلتفت إليها الناس، وأن بعض ما يبدو تبعيةً أو ضعفاً أو انكساراً يكون في حقيقته اللبنة الأولى في عمارة المستقبل.

إن “التمكين” في منطق السورة ليس قفزةً فجائيةً، بل سلسلة إعدادات مترابطة.

تمكين في الحفظ أولاً، ثم تمكين في التربية، ثم تمكين في بناء النفس، ثم تمكين في الموهبة، ثم تمكين في الخلق، ثم تمكين في الفهم، ثم تمكين في الموقع، ثم تمكين في القرار.

أما الذين لا يرون إلا الكرسي الأخير فإنهم يجهلون أن الكرسي لا يصنع صاحبه، بل المراحل الطويلة التي سبقتها هي التي تصنعه.

وهنا يصبح كل ما سبق أوضح:

الجب لم يكن نقيض التمكين، بل كان أول عتباته.

والسوق لم يكن قطعاً عن الوعد، بل جزءاً من توجيه يوسف إلى الجغرافيا التي سيقع فيها وعده.

والبيت الذي دخله عبداً سيكون هو نفسه الباب إلى امتحان العفة، ثم إلى السجن، ثم إلى التأويل، ثم إلى الظهور، ثم إلى خزائن الأرض.

كأن السورة تقول: لا تفصلوا بين المراحل التي تبدو متنافرة؛ ففي علم الله هي خيوط متصلة في نسيج واحد.

ثم تأتي تنمة الآية: {وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف: ٢١].

هنا نكتشف أن يوسف لا يُنقل فقط في الأمكنة، بل يُبنى في الباطن أيضاً.

فكل هذه التحركات الخارجية ليست مجرد وقائع، بل هي إطارٌ لتعليم داخلي مخصوص.

ومن أعظم أخطاء الإنسان أن يقرأ حياته في مستوى الأحداث فقط، لا في مستوى “ما الذي يعلمني الله الآن؟”.

سورة يوسف تدربك على هذا السؤال الناضج:

أنا لا أسأل فقط: لماذا حصل هذا؟

بل أسأل أيضاً: ماذا يبني الله فيَّ من خلال هذا؟

وقد كان من الممكن — لو أراد الله — أن يهب يوسف التأويل من غير هذه الرحلة كلها، لكنه سبحانه ربط التعليم بالمسار.

لماذا؟

لأن بعض العلوم لا يليق بها إلا قلبٌ مرّ بمناخل القدر.

وبعض الفهوم لا يُفتح لها إلا بعد تهشيم الغرور، وتوسيع الداخل، وتعميق الصلة بالله، وتدريب النفس على احتمال الغيب، والصبر على الالتباس، والنظر وراء الظاهر.

فيوسف لن يكون مفسر رؤيا بالمعنى الذهني فقط، بل سيكون قارئاً عميقاً لحركة المقادير، ومن ذاق الحب، والغربة، والبخس، والبيع، صار أقدر على فهم التعقيد الإنساني من إنسانٍ لم يعرف من الحياة إلا سطحها المريح.

ثم تختتم الآية بعبارة هي من أعظم ما يُثبَّت القلب: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١].

هذه ليست جملة تفسيرية فحسب، بل هي قانون السورة كله.

إخوة يوسف لهم أمر، والذين التقطوه لهم أمر، والذين باعوه لهم أمر، والعزيز له أمر، وامرأة العزيز سيكون لها أمر، والسجناء سيكون لهم أمر، والملك له أمر، والمجتمع له أمر؛ لكن فوق كل هذه الأوامر والتحركات والخطط والتصورات والمكائد والرغبات والنيات، هناك أمر الله الغالب.

وهذا هو المعنى الذي إذا استقر في القلب تغيّرت رؤيته للعالم كله.

فالإنسان يعيش في أرض تضج بأوامر البشر، بخططهم، بإداراتهم، بمؤسساتهم، بسطواتهم، بمكرهم، بقدرتهم على الإيذاء أو المنع أو الإرجاء، فينسى أن فوق ذلك كله أمرًا أعلى، لا يبطله تراكم الأوامر الأرضية، ولا تهزمه كثرة المتدخلين.

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}

أي إن النتيجة النهائية ليست لمن امتلك الأيدي الأكثر، ولا الحيلة الأعلى، ولا النفوذ الأوسع، بل لمن نفذ فيه أمر الله.

ويوسف من أول السورة إلى آخرها شاهدٌ حيٌّ على هذه الحقيقة:

كادوا له، فدخل كيدهم في طريق تمكينه.

باعوه، فكان البيع نقلًا إلى مصر.

رُودَ، فكانت المراودة كشفًا لطهارته.

سُجن، فكان السجن بوابة ظهوره.

نُسي، فكان النسيان جزءًا من ضبط التوقيت.

ثم ظهر الأمر الغالب.

ولكن تأمل آخر الجملة: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

وهذا يكشف لك أن الغلبة الإلهية لا تُفهم عادةً في لحظتها.

أكثر الناس ينظرون إلى اللحظة ولا يرون المآل، ينظرون إلى الحب فيظنونه نهاية، وإلى السوق فيظنونه امتهاً صرفاً، وإلى السجن فيظنونه تعطيلاً خالصاً، وإلى التأخير فيظنونه إهمالاً.

لكن القلة التي أضاء الله بصيرتها هي التي تفهم أن الغلبة الإلهية قد تتشكل تحت غبار الوقائع البائسة، وأنها لا تأتي دائماً في هيئة النصر المباشر، بل قد تأتي في هيئة إعادة توزيع المشهد كله دون أن يشعر اللاعبون فيه أنهم يُساقون إلى ما أراد الله.

ومن هنا يتضح أن هذا الفصل لا يتحدث فقط عن يوسف، بل عن كل إنسان مرّ بمرحلة شعر فيها أن العالم قد اختزله، وبخسه، وزهد فيه، ووضع عليه

تسميات أقل من حقيقته، أو ساقه إلى موضع لم يختره، أو أدخل في إطار لا يعبر عن جوهره.

تأتي سورة يوسف لتقول له:

تمهّل، فقد تكون الآن في مرحلة يراك الناس فيها بضاعةً، بينما أنت في عين الله مشروعٌ تمكينٍ مؤجل.

قد تكون في نظر الناس قليل القيمة، بينما الله يعلمك من تأويل الأحاديث ما لا يراه فيك أحد.

قد يُنادى عليك باسمٍ لا يشبه حقيقتك، لكن الحقائق لا تتبدل لأن السوق أساء تسميتها.

خلاصة الفصل

إن من أعظم ما تكشفه سورة يوسف في هذا الموضع أن الاختزال البشري للإنسان لا يغيّر من حقيقته عند الله؛ فقد يُباع صاحب الرسالة، ويُخس صاحب القيمة، ويُزهد في صاحب المستقبل، ويُعامل وكأنه شيء عابر، بينما يكون الله قد أدخله بذلك كلّهُ إلى مسار التمكين والتعليم والتكوين.

مفتاح الفصل

ليس أخطر ما يصيب الإنسان أن يُظلم، بل أن يصدّق تعريف الظالمين له؛ أما يوسف فلم تمنعه البضاعة في أعينهم من أن يبقى مشروع اصطفاء في علم الله.

الفصل الثالث

بيت العزيز: كيف يُربّي الله عبده على الطهارة في قلب الوفرة والفتنة، لا في غيابها فقط

إذا جاوزت بسورة يوسف مشهد الجب والسوق، ودخلت بيت العزيز، فلا يصح أن تتعامل مع هذا الانتقال بوصفه مجرد تحوّل مكاني من قاع البئر إلى سقف البيت، أو من الامتحان التجاري إلى الاستقرار الاجتماعي؛ لأن السورة هنا لا تنقلك من ابتلاء إلى راحة، بل من نوع من الابتلاء إلى نوع أعمق وأدق وأشدّ التصاقًا ببنية النفس الإنسانية.

ففي الجب كان الخطر خارجًا عن يوسف، وفي السوق كان البخس واقعًا عليه من غير اختياره، أما في بيت العزيز فسيبدأ امتحانٌ من أخطر الامتحانات: امتحان الداخل؛ امتحان الشهوة، والهوية، والاستقامة حين تتيسر أسباب الانحراف، لا حين تتعذر.

وهنا تظهر عبقرية سورة يوسف في بناء الإنسان.

فالله لا يريد لعبده المختار أن ينجو من الفتن لأنه بعيد عنها فقط، أو لأنه لم تُفتح له أبوابها، أو لأنه لم يجد طريقًا إليها، بل يريد أن يبني فيه من القوة الروحية والبصيرة الأخلاقية ما يجعله قادرًا على أن يبقى نقيًا مع حضور دواعي السقوط.

فطهارة العاجز ليست دائماً دليل مجاهدة، لكن الطهارة في قلب القدرة،
والعفة في قلب الإغراء، والنزاهة في قلب الإمكان؛ هذه هي المواطن التي
ينكشف فيها المعدن حقاً.

قال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}
[يوسف: ٢٢].

هذه الآية تبدو للقراءة السريعة كأنها جملة عابرة بين المشاهد، لكنها في
الحقيقة مفتاح بالغ الأهمية.

فيوسف لا يدخل الفتنة التالية وهو فراغٌ داخليٌّ أو نفسٌ خامٌ لم تُهيأ، بل
يدخلها بعد أن بلغ أشده، وبعد أن آتاه الله حكماً وعلماً.

كأن السورة تقول لك: إن الفتن الكبرى لا ينبغي أن تُقرأ فقط من جهة
ضخامتها الخارجية، بل من جهة ما أودعه الله في قلب عبده من أسباب
الثبات قبل وقوعها.

والحكم هنا ليس مجرد الفهم، بل الرشد في التقدير، والتوازن في الموقف،
وسلامة البصيرة في لحظة الاضطراب.

والعلم ليس مجرد المعلومات، بل نورٌ يضع الأشياء في مواضعها، ويكشف
مآلاتها، ويمنع النفس من أن تغترّ باللذة العاجلة حين ترى ما وراءها من
خراب.

ثم تأتي الآية التي تهز الوجدان كله: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ
وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣].

إن القرآن هنا لا يذكر مجرد “دعوة إلى الحرام”، بل يصوغ مشهداً مكتفياً
تتجمع فيه كل عناصر الإغراء والضغط والفرصة.

إنها ليست امرأة عابرة في الطريق، بل التي هو في بيتها؛ أي إن السياق كله
سياق تبعية اجتماعية ومكانية.

وليست مراودة خاطفة، بل مراودة مقصودة، مدبرة، مكررة في إحياء اللفظ
نفسه.

وليست الأبواب مفتوحة على احتمالات الانقطاع، بل {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ}؛
وهذا التعبير بحد ذاته يرسم لك بيئة مغلقة على الفتنة، كأن كل المنافذ
الخارجية قد أُقفلت ليظهر أي المنافذ بقي مفتوحاً في الداخل.

وهنا ينبغي أن نتوقف عند شيء بالغ الرهافة:

إن الله لم يبعد يوسف عن موطن الفتنة من الأصل، بل أدخله بيتاً ستنشأ فيه
الفتنة، ثم ربّاه في قلبها على معنى الطهارة.

ولماذا؟

لأن الله يريد أن يخرج عبداً ليس صالحاً فقط في البيئات النظيفة، بل صالحاً
أيضاً حين يُحاصر بالضغوط، وحين تُفتح أمامه أسباب المعصية فتحاً، وحين
يبدو الطريق إلى الحرام أسهل من أي وقت آخر.

وهذا يفضح مفهوماً ضعيفاً للتقوى، يظن أن صلاح الإنسان هو مجرد نتيجة لغياب الابتلاءات الدقيقة من حوله، بينما الصلاح الرباني الأصيل هو الذي يثبت حين تحضر الفتنة بكامل أدواتها.

ثم تأتي الكلمة التي تختصر هوية يوسف كلها: {قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ} [يوسف: ٢٣].

هذه الكلمة قصيرة في حروفها، لكنها من أعظم الكلمات في القرآن من جهة ما تبنيه في النفس.

فيوسف لم يدخل أولاً في جدلٍ مع نفسه، ولم يقل سأفكر، ولم يبدأ بموازنة المكاسب والخسائر، ولم يحلل موقف المرأة، ولم يناقش وضعه الاجتماعي، ولم يُخضع الأمر لمنطق اللحظة، بل خرجت منه كلمة العبودية الأولى: معاذ الله.

وهذا من أسرار الثبات التي لا ينتبه لها كثير من الناس:

إن المؤمن إذا دخل في مساومات نفسية طويلة مع الفتنة، استنزف، وربما هُزم؛ أما إذا كان قلبه قد رُبِّي مسبقاً على مرجعية الله، فإن أول استجاباته تكون لجوءاً لا تفاوضاً، واعتصاماً لا مساومة.

“معاذ الله” هنا ليست امتناعاً أخلاقياً مجرداً، بل إعلان انتماء:

أنا لست متروكاً لشهوتي، ولا محكوماً بالظرف، ولا أسيراً لإغلاق الأبواب، ولا منقطعاً عن ربي وإن انقطعت عن الخلق.

بل إن أعظم ما في هذه العبارة أنها تكشف أن أوسع الأبواب في المشهد لم يكن باب الغرفة، بل باب الله.

أغلقت هي الأبواب التي تملكها، لكن يوسف فتح الباب الذي لا يُغلق: باب الالتجاء إلى الله.

ثم يقول: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣].

وقد تعددت أنظار المفسرين في عود الضمير، لكن المقصود هنا في مسار التدبر أن يوسف لم يرَ الموقف شهوةً مجردةً منفصلةً عن شبكةٍ من المعاني الكبرى؛ بل رآه من خلال الأمانة، والوفاء، والإحسان، والظلم.

وهذه نقطة عظيمة جدًا في البناء الأخلاقي القرآني:

إن مقاومة المعصية لا تكون فقط بكبت الرغبة، بل بإعادة وصل الفعل بسياقه الأخلاقي الكامل.

فالذي يريدك الشيطان أن تراه “فرصة خاصة” يعلمك القرآن أن تراه “خيانة”، و“ظلمًا”، ونقضًا للإحسان، وكسرًا للحدود التي أقامها الله في الكون والأخلاق والعلاقات.

وفي هذا المعنى تتجلى رفعة يوسف؛ فهو لا يرى نفسه وحده في المشهد، بل يرى الحق كله، ويرى المعنى كله، ويرى أن أي لذة تُبنى على الخيانة هي في حقيقتها سقوط في الظلم، وأن الظلم لا يفلح مهما تلون بوعود المتعة.

وهذا درس عظيم: الإنسان لا ينتصر على الحرام فقط لأن إرادته قوية، بل لأنه يملك رؤيةً صحيحةً تعيد تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية؛ فيرى ما يسميه الهوى لذةً فيراه هو ظلمًا، وما يسميه الشيطان حريةً يراه هو قيدًا، وما يسميه الناس فرصةً يراه هو امتحانًا مهددًا لمعناه.

ثم تأتي الآية الدقيقة التي طال فيها كلام الناس: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤].

وفي مقام التدبر المنهجي الذي يراعي ظاهر النص أولاً، ثم ينفذ إلى أسرارهِ، يظهر أن الآية لا تُسقط عن يوسف بشريته، لكنها في الوقت نفسه ترفعه إلى فهم أرفع من الفهم الساذج.

فيوسف ليس ملكًا خارج طبائع البشر، لكنه أيضًا ليس نفسًا متروكة للانفعال ثم تعود في آخر لحظة؛ بل هو عبدٌ اصطفاه الله، وأراه برهانه، وصرف عنه السوء والفحشاء، وجعله من عباده المخلصين.

والأهم هنا ليس الدخول في تفاصيل الجدال اللفظي بقدر ما هو الوقوف عند البناء القرآني الكلي:

إن الله لا يمدح يوسف بكونه بلا بشرية، بل يمدحه بكونه محفوظًا بالله داخل بشريته.

وهذا من أعظم أبواب الرجاء للمؤمنين.

فالطهارة ليست أن تُنَزَعَ من الإنسان قابليته البشرية، بل أن يُعان من الله على أن لا تملكه تلك القابلية.

والعصمة العملية هنا ليست نفيًا لوجود الجاذبية النفسية أصلًا، بل حضورًا ساحقًا لبرهان الله، يجعل نور الحق في القلب أعلى من ضغط الشهوة.

وهذا ما تشير إليه العبارة الفاصلة: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ}.

لم يقل: ليصرف نفسه، مع أن مجاهدته حاضرة، ولكن قدّم صرف الله عنه؛ لأنّ منتهى الهداية أن يصبح العبد في حفظٍ خاص، لا ينجو بجهده وحده، بل برعاية الله التي تسنده، وتحصّن قلبه، وتكشف له قباحة السقوط لحظة يغريه فيها ظاهر اللذة.

ثم تأتي الجملة العظمى: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}.

وهذه ليست شهادةً بعد الحدث فقط، بل مفتاحٌ لفهم كل ما جرى.

المخلص هو الذي خلص لله، فخلصه الله لنفسه، وأحاطه بعنايةٍ لا تعني أنه لن يُفتن، بل تعني أن الفتنة نفسها تصبح ميدانًا لظهور الاصطفاء.

إن يوسف لم يُحفظ لأنه لم يتعرض، بل حُفظ لأنه تعرّض ونجا، ولأن قلبه كان لله، فأكرمه الله بمددٍ خاص في لحظة الخطر.

ثم ينتقل المشهد إلى الحركة: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ} [يوسف: ٢٥].

وهنا تظهر الطهارة في صورة أخرى.

فالعفة ليست قرارًا داخليًا فقط، بل فرارٌ عمليٌّ من مواضع السقوط.

والقرآن هنا يعلمك أن من تمام التقوى ألا يكتفي الإنسان برفض المعصية في باطنه، بل يُترجم ذلك إلى حركة خروج، وقطع، ونجاة بالجسد كما نجا بالقلب.

فالذي يريد السلامة لا يجلس في ميدان الفتنة ليثبت لنفسه القوة، بل يخرج، يهرب، يبتعد، يختار الباب، يطلب النجاة بالفعل كما طلبها بالنية.

ثم يمزق القميص من دبر، ويظهر الزوج، ويتحول المشهد من خلوةٍ مغلقة إلى ساحة اتهام.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من الامتحان: أن يُتَّهم الطاهر بما فرّ منه.

وهذه من أقسى الابتلاءات النفسية؛ لأن كثيرًا من الناس قد يحتملون شدة مقاومة الفتنة، لكنهم ينهارون إذا تبع ذلك تشويه السمعة أو قلب الحقائق أو اتهام البريء بما أباه.

وسورة يوسف لا تكتفي بأن ترينا يوسف وهو يعفّ، بل ترينا أيضًا كيف يثبت حين يُراد لعفته أن تتحول إلى تهمة.

قالت: {مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا؟} [يوسف: ٢٥].

إنه القلب الكامل للحقيقة.

وكم في الحياة من لحظات شبيهة بهذا؛ حيث لا يكتفي الباطل بأن يخطئ، بل يسعى إلى أن يلبس ثياب البراءة، وأن يقذف ضحيته بما اقترفته يداه.

وهنا يتجلى درس بالغ الخطورة:

إن طريق الطهر لا يحميك دائماً من الافتراء، بل قد يكون من تمام امتحانك أن تُساء قراءتك، وأن تُقلب صورتك، وأن تدخل في لحظة يبدو فيها الكاذب أقدر على الخطاب من الصادق.

لكن الله لا يترك الحقيقة بلا شاهد.

فيأتي الشاهد من أهلها، وتنكشف العلامة في القميص، ويبدأ الحق في التشكّل ظاهراً من خلال أثرٍ مادي بسيط.

وهذا من سنن الله البديعة:

قد يجعل الله نجاتك في شيء لا يخطر لك، في علامةٍ صغيرة، في قرينةٍ مهملة، في تفصيلٍ يراه الناس عرضياً بينما يجعله الله حاسماً.

ولذلك لا يجوز للمؤمن أن يظن أن البراءة لا سبيل لها إذا تكاثفت عليه السنة الظلم؛ فالله قادر أن يخلق من أصغر الأشياء طريقاً لظهور الحق.

ثم بعد ذلك لا تنتهي الفتنة، بل تتسع.

فالخبر يخرج إلى المجتمع، والنسوة يتحدثن، وتدخل السورة في طبقة جديدة من كشف النفس البشرية؛ إذ لا يعود الأمر مجرد واقعة خاصة، بل يتحول إلى مجال اجتماعي للإغراء الجماعي والتطبيع مع الفتنة.

والنسوة حين لئن امرأة العزيز بدا الأمر أولاً كلوم أخلاقي، لكنهن ما إن رأين يوسف حتى دخلن في الذهول نفسه، وقطعن أيديهن، وقلن: {حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا} [يوسف: ٣١].

هنا تريك السورة شيئاً شديداً الدقة:

الفتنة لا تأتيك فقط من طلب مباشر للحرام، بل قد تأتي أيضاً من اجتماع ثقافي ونفسي يهون الحرام ويصنع له غلافاً من الإعجاب والتبرير والاستسلام الجماعي.

فحين تتواطأ العين والألسنة والأجواء على تطبيع الانحراف، يصبح الثبات أصعب؛ لأنك لا تقاوم رغبة فردية فقط، بل تقاوم مناخاً كاملاً يضغط على وعيك ليعيد تعريف المنكر.

ولهذا تبلغ الآية التالية ذروة الجمال الإيماني: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [يوسف: ٣٣].

هذه الآية لا تعني أن السجن محبوب لذاته، بل تعني أن يوسف بلغ من صفاء البصيرة أنه صار يرى الأشياء بحقيقتها الوجودية، لا بمظاهرها.

فما يسمونه هم لذة ورغبة وانفتاحاً، يراه هو هبوطاً من مقام العبودية.

وما يبدو للناس قيدًا خارجيًا - وهو السجن - يراه هو أهون من قيد الشهوة إذا سيطرت على روحه.

وهنا يرتفع المعنى إلى ذروته:

الحرية الحقيقية ليست أن تفعل ما تشاء، بل أن لا تكون عبدًا لما يهينك. ومن كان أسير شهوته، ولو كان طليق الجسد، فهو في نوع من السجن. ومن حفظ قلبه لله، ولو دخل زنازنة، ففيه من السعة ما لا يعرفه كثير من المتحللين.

ولذلك فقول يوسف: {أَحَبُّ إِلَيَّ} يكشف عن انقلاب معياري عجيب.

إنه لا يختار بين راحتين، بل بين ألمين: ألم الطاعة وألم المعصية.

ولأنه يرى ببصيرة النبوة أن ألم الطاعة نظيف، وأن ألم المعصية ملوث، اختار السجن؛ لأن السجن يبقي جوهره سليمًا، أما الاستجابة للفتنة فكانت ستكسر في داخله شيئًا أعظم من كل القضبان.

وهكذا تعلّمك السورة أن الإنسان الراشد ليس من يطلب أقل الأثمان السريعة، بل من يختار الألم الذي يحفظ معناه على اللذة التي تقتله من الداخل.

ثم يختم يوسف دعاءه بقوله: {وَالَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: ٣٣].

وهنا يصل التواضع الإيماني إلى قمته.

فبعد كل هذا الثبات، وبعد كل هذا النور، لا يقف يوسف موقف المعجب بنفسه، ولا يقول أنا قد تجاوزت الخطر، بل يعترف بفقره التام إلى معونة الله. إنه يعلم أن النفس البشرية لا تستقل بالنجاة، وأن من حُرِمَ توفيق الله قد ينحدر وهو يظن أنه ثابت.

وهذا من أصدق ما في السورة:

أن القوة الإيمانية الحقيقية لا تُنتج غرورًا، بل تُنتج افتقارًا أشدّ. وكلما ازداد العبد معرفةً بربه وبنفسه، ازداد يقينًا أن الثبات نعمةٌ ليست له من ذاته، بل هبةٌ متجددة من الله كل لحظة.

فاستجاب الله له: {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ} [يوسف: ٣٤].

فجاء الجواب من جنس الدعاء، وجاء الحفظ من جنس الافتقار.

وكأن السورة تضع لك هنا قانونًا جامعًا:

من صدق في طلب العصمة من الله، عصمه الله.

ليس معنى هذا أن الطريق سيصير بلا كلفة، فقد يدخل السجن بعد ذلك، لكن قلبه سينجو، وداخله سيبقى مصونًا، وهذه هي النجاة الأولى التي بدونها لا معنى لكل نجاة أخرى.

خلاصة الفصل

إن بيت العزيز في سورة يوسف ليس محطة رفاة بين محنتين، بل هو مختبر الطهارة الكبرى؛ فيه يبين الله أن عبده المختار لا يُراد له فقط أن ينجو من الشر إذا كان بعيداً عنه، بل أن يثبت لله حين تحاصره الشهوة، وتُغلق الأبواب، وتُقلب الحقائق، ويُدعى إلى السقوط من أكثر من جهة.

وفي هذا كله لا ينتصر يوسف بقوة ذاتية مستقلة، بل بقلب امتلأ بالله حتى صار أول ردوده: {مَعَاذَ اللَّهِ}، وآخر يقينه: {وَالْأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}.

مفتاح الفصل

الطهارة في سورة يوسف ليست غياب الفتنة، بل حضور الله في القلب حضوراً يجعل العبد يرى السجن أهون من أن يخسر نفسه.

الفصل الرابع

السجن: كيف يحوّل الله موضع التعطيل الظاهر إلى ورشة إعدادٍ خفيٍّ للظهور والتمكين

إذا بلغت في سورة يوسف موضع السجن، فأياك أن تتعامل معه باعتباره مجرد مرحلة عقابية في تسلسل الأحداث، أو باعتباره فاصلةً سوداء بين فتنة الشهوة وفتحة الملك؛ لأن هذا الفهم — على شيوخه — يظلم السورة كثيرًا، ويختزل واحدًا من أعمق مواضعها في معنى ضيق.

فالسجن في سورة يوسف ليس مجرد مكان أودع فيه يوسف ظلمًا، بل هو في التقدير الرباني موضع إعادة تشكيل، ومرحلة إنضاج، وعزلة تربوية كثيفة، وممر لا بد منه حتى لا يخرج يوسف إلى الناس مجرد ناجٍ، بل خارجًا إليهم وقد اكتملت فيه طبقات من الفهم والاتزان والرحمة والقدرة على التأويل والتصرف في المصائر العامة.

وهنا نحتاج أن نقرر قاعدةً كبرى قبل الدخول في التفاصيل:

ليس كل ما يبدو تعطيلًا في حياة المؤمن تعطيلًا حقيقيًا، فقد يكون بعضه زمن إعدادٍ لا زمن إقصاء.

والعالم البشري في قراءته السطحية للحياة لا يرى إلا الحضور المباشر: من ظهر فقد تقدّم، ومن حُجب فقد تأخر، ومن تحرك في الضوء فقد سار، ومن سُجن أو أُقصي أو جُمِدَت حركته فقد تعطلت حياته.

أما القرآن — وخصوصًا في سورة يوسف — فيعلّمك أن بعض أكثر المراحل فاعليّة في تكوين الإنسان تقع بعيدًا عن أعين الناس، وفي أماكن يظنها الجميع نهايات، بينما هي في علم الله مختبرات إعداد.

قال تعالى: {ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُئُهُ حَتَّىٰ حِينٍ} [يوسف: ٣٥].

هذه الآية وحدها تكشف مقدار اختلال الموازين في المجتمع البشري حين تختلط المصلحة بالهوية الاجتماعية.

فهم رأوا الآيات؛ أي لم يكن الحق خافيًا عليهم، ولم تكن البراءة ملتبسة التباسًا كاملاً، ولم تكن القرائن معدومة، بل ظهرت لهم دلائل البراءة، لكنهم — مع ذلك — لم يتبعوا الحق إلى نهايته، بل اختاروا الحل الذي يحفظ الصورة العامة، ويخمد الفضيحة، ويُسكت الضجيج، ولو كان الثمن أن يدخل البريء السجن.

وهنا تنكشف حقيقة مرة من حقائق الاجتماع البشري:

إن كثيرًا من الظلم لا يقع لأن الحقيقة غائبة، بل لأن الاعتراف بها مكلف.

فالناس أحيانًا لا يرفضون الحق لأنهم لم يروه، بل لأنهم رأوه وعلموا أن الإذعان له سيهزّ بنيةً من المصالح أو الاعتبارات أو المكانات، فيختارون الالتفاف عليه بدل الانقياد له.

ولهذا فالسجن هنا ليس فقط ابتلاءً شخصياً ليوسف، بل كشفٌ قرآني عن أن البراءة لا تكفي دائماً لرفع الظلم فوراً في دنيا البشر، لأن هناك قوى أخرى تتدخل: سمعة، ونفوذ، وخوف من الفضيحة، ورغبة في إغلاق الملف بأي صورة.

لكن الأعجب من هذا كله أن السورة لا تسمح لك أن تستغرق في مرارة الظلم وحدها، بل تنقلك بسرعة إلى معنى آخر: ماذا سيفعل يوسف داخل السجن؟ وهنا يبدأ الفرق الهائل بين النفوس الكبيرة والنفوس المنكسرة.

فالنفوس العادية إذا أُودعت موضعاً ظلماً ربما صارت كل هويتها دائرةً حول الظلم الذي وقع عليها، فتذبل رسالتها، وينكمش نفعها، ويتحول جرحها إلى مركز وجودها كله.

أما يوسف فإن السجن لم ينجح في اختزال هويته إلى “مسجون”، بل بقي يوسف داخله يوسف: صاحب إحسان، وصاحب حضور، وصاحب نور، وصاحب نفع، وصاحب دعوة، وصاحب تأويل.

قال تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٣٦].

تأمل الجملة الأخيرة: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}.

لم يقولوا: نراك من المظلومين، مع أنه مظلوم.

ولم يقولوا: نراك من أهل المصائب، مع أنه صاحب بلاء.

ولم يقولوا: نراك منكسرًا مثلنا، مع أنه في السجن مثلهم.

بل رأوا فيه شيئًا آخر طغى على الظرف كله: الإحسان.

وهذا من أعمق مفاتيح السورة وأشدّها أثرًا على بناء الإنسان:

قدرتك على ألا يتحول ابتلاؤك إلى هوية نهائية هي من علامات النضج الإيماني الكبير.

يوسف لم يسمح للسجن أن يسرق منه رسالته، ولا أن يحوّل روحه إلى كتلة شكوى، ولا أن يجعله مستهلكًا في لعن الظالمين فقط، بل ظلّ نافذًا بالنور حيث وُضع.

ولذلك رأى الناس فيه إحسانًا قبل أن يروا فيه مأساة.

وهنا ينبغي أن نطيل الوقوف قليلًا عند معنى الإحسان في هذا الموضع.

الإحسان ليس مجرد أخلاق مهذبة، بل حالة امتلاء داخلي بالله، تجعل الإنسان يفيض أثرًا نافعًا حتى وهو مجروح.

فكثير من الناس لا يحسنون إلا إذا استقامت لهم الحياة، أما إذا داهمهم الظلم أو الضيق جفّت ينابيعهم، وتحولوا إلى ذوات تدور حول ألمها.

أما يوسف فيقدّم نموذجًا آخر: أن تكون مبتلى لكن غير منقطع عن العطاء، مجروحًا لكن غير محروم من الإفاضة، مظلومًا لكن غير منزوع النفع.

وهذا مقام رفيع جداً، لأنه لا يتحقق إلا حين يكون اتصال القلب بالله أعمق من اتصال النفس بجرحها.

ثم انظر إلى أدب يوسف في استقبال السؤال.

هما يسألانه عن الرؤيا، لكنه لا يقفز فوراً إلى الجواب، بل يهيئ المشهد، ويربط النعمة بمصدرها، ويجعل الموهبة مدخلاً إلى الرسالة، لا مجرد استعراض قدرة.

قال: {لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} [يوسف: ٣٧].

هذه الآية عظيمة من جهات كثيرة.

أولاً: يوسف لا ينسب القدرة إلى نفسه استقلالاً، بل يقول: {مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي}.

وهذا هو الفرق بين النفس المؤيدة والنفس المتضخمة: الأولى كلما اتسعت عطاياها اتسع معها ردّها إلى الله، والثانية كلما ازداد ما عندها ازداد وهمها بأنها مصدره.

وثانياً: يوسف لا يجعل نعمة التأويل أداة لاكتساب الهيبة فقط، بل جسراً يعبر منه إلى التوحيد، أي إنه يرفض أن تكون موهبته منفصلة عن رسالته.

ثم يبدأ الحديث عن العقيدة: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...}

[يوسف: ٣٧]

{وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [يوسف: ٣٨]

{يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف: ٣٩].

وهنا يبلغ البناء القرآني غاية الجمال.

فيوسف في السجن لم يقل: هذا ليس وقت دعوة، أنا مظلوم أولاً، دعوني أخرج ثم أتكلم.

ولم يقل: سأحدث عن الله إذا انفرجت حالي.

بل مارس رسالته من داخل القيد.

وهذا درس مزلزل:

إن العبد الرباني لا يعلّق نفعه على تحسن ظروفه، لأنه لا يرى الرسالة ترفاً مؤجلاً، بل يرى نفسه عبداً لله حيثما وضعه الله.

ومن أعظم ما في هذا الموضع أن يوسف لم يبدأ بالتأويل قبل التوحيد.

مع أنه كان قادراً أن يجيب مباشرة، لكنه قدّم إصلاح الأصل على إعطاء الفرع.

كأن السورة تقول: ما قيمة أن تفهم بعض تفاصيل المستقبل إذا كان قلبك لم يُصلح علاقته بربه؟

وما فائدة أن تعرف ما سيحدث لك غداً وأنت لا تعرف لمن ينبغي أن تسجد اليوم؟

إن يوسف هنا يعيد ترتيب الأولويات الإنسانية: الأصل هو الله، ثم بعد ذلك تأتي المعرفة، ثم تأتي التفاصيل.

وهنا أيضاً يظهر أن السجن — في منطق القدر — لم يكن فقط مكاناً يُختبر فيه يوسف بالصبر، بل مكاناً يظهر فيه نضجه الرسالي.

فالرجل الذي سيقود أزمة اقتصادية كبرى في مصر، ويصبح موضع ثقة وسلطان، لا بد أن يكون قبل ذلك قد تمرّن على مخاطبة الناس، وعلى ترتيب المعنى، وعلى حمل الرسالة في مواضع الكثافة الإنسانية، وعلى أن تبقى هويته التوحيدية حية في أحلك المواطن.

ومن هنا يصبح السجن مرحلة إعداد للقيادة بقدر ما هو مرحلة ابتلاء.

ثم يفسر لهما الرؤيا، ويقع التأويل كما قال.

لكن السورة لا تتوقف عند دقة التأويل وحدها، بل تنتقل إلى موضع دقيق جداً:

{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} [يوسف: ٤٢].

وهنا موضع بالغ الرهافة، لا ينبغي أن يُقرأ على نحو مبتسر.

فيوسف هنا يأخذ بسببٍ بشريٍّ مشروع: يطلب ممن سيخرج أن يذكره عند الملك.

وهذا بحد ذاته ليس مذمومًا، لأن الأخذ بالأسباب من سنن الحياة.

لكن السورة تريد أن تربيك على شيء أعمق: أن الأسباب حين لا يؤذن لها لا تعمل، وأن قلب المؤمن لا ينبغي أن يستقر فيها استقرار الاعتماد النهائي.

لذلك قال تعالى: {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} [يوسف: ٤٢].

ومهما تنوعت الأنظار في بعض دقائق الضمائر هنا، فإن المعنى التربوي الكبير ظاهر:

أن الخروج لم يأت حين أراد يوسف بسببٍ بشري، بل حين أراد الله بتقدير كامل.

وكان الله سبحانه يعلم يوسف — ويعلمنا معه — أن النجاة لا تُبنى على براعة ربط المخارج البشرية فقط، بل على التوقيت الإلهي الذي إذا لم يحن، تعطلت الوسائط، وإذا حان، جاءت الوسائط نفسها من حيث لا يحتسب الإنسان.

وهنا يظهر سرٌّ شديد العمق: التأخير في سورة يوسف ليس فراغًا، بل ضبطٌ دقيق للساعة التي ينبغي أن يظهر فيها يوسف.

فلو خرج يوسف مبكرًا بذكر الساقى له، ربما خرج مجرد مفرج عنه، أو عاد إلى هامش اجتماعي ما، أو لم يخرج في اللحظة التي تستدعيها الأزمة الكبرى للبلاد.

لكن الله أخر خروجه حتى تتكوّن في الخارج الظروف التي تجعل خروجه ليس مجرد نجاة شخصية، بل بداية تحول عام.

وهذه من أبدع سنن الله:

أحيانًا لا يؤخر عنك الفرّج لأنه يمنعه عنك، بل لأنه يريد أن يأتيك على صورة أتمّ، وأدقّ، وأوسع أثرًا مما كنت تطلب.

وفي هذا الموضع تتجلى قيمة “البضع سنين”.

إنها سنوات من البطء في ظاهرها، لكنها في باطنها سنوات إنضاج.

الإنسان المستعجل يرى في السنوات الضائعة خسارة، أما الميزان الرباني فينظر أحيانًا إلى تلك السنوات بوصفها الجزء اللازم من التكوين.

كم من نفسٍ لو خرجت إلى التمكين قبل نضجها لأفسدها التمكين، وكم من موهبة لو قفرت إلى الضوء قبل رسوخها لأحرقها الأضواء، وكم من حامل رسالة لو وصل قبل اكتمال طبقات وعيه لانكسر تحت ثقل ما سيحمّله الله.

إن السجن، في هذا المعنى، هو مدرسة التجريد.

فيه يتعرى الإنسان من كثير من أوهام السيطرة.

فيه يسقط ظنّه بأن حركته وحدها تكفي.

فيه يتعلم أن الله يربّيه لا فقط بما يفتح له، بل أيضًا بما يغلقه عليه.

فيه تتكثف العزلة، ويقلّ التشبث، وتبرز علاقة الإنسان بذاته وبربه وبمعناه الرسالي في صورة أشد صفاء.

وهذا كلّهُ ضروري جدًّا ليوسف؛ لأنه مقبل على مقام سيحتاج فيه إلى عقل راجح، ونفس منضبطة، وقلب غير مملوك للانتقام، ورؤية تتجاوز همومه الشخصية إلى تدبير شأن الناس.

ثم إن السجن ربّاه أيضًا على فهم الإنسان من الداخل.

من عاش القصر وحده لا يفهم دائمًا القاع.

ومن لم يدخل مواضع الكسر البشري لا يحيط على الحقيقة بطبائع النفوس المتفاوتة في الضعف والخوف والحاجة والأمل.

أما يوسف فقد مرّ بالحب، والسوق، وبيت العزيز، ثم السجن؛ أي إنه دخل طبقات متناقضة من الاجتماع البشري، وعاین الضعف والقوة، الشهوة والسلطة، التهمة والحاجة، الظلم والحوار، الخفاء والانتظار.

ومثل هذا الإنسان إذا خرج إلى تدبير شؤون الناس لم يخرج إليهم بعقل إداري بارد فقط، بل بوعي إنسانيّ صاغته التجربة، وربّاه الألم، وهذبّه الصبر.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن السجن في سورة يوسف ليس نقيض التمكين، بل أحد معامل التمكين الكبرى.

الذين ينظرون إلى الكرسي الأخير فقط لا يفهمون هذا، لكن الذين يقرأون السنن يدركون أن الله لا يسلم خزائن الأرض لقلب لم يُصفَّه البلاء، ولم يُعلمه الحرمان كيف يرحم، ولم يُنضجه التأخير حتى لا يفسده التعجيل.

خلاصة الفصل

السجن في سورة يوسف ليس مجرد حبس للبدن، بل فضاء لصقل الروح، وتربية الرسالة، وإنضاج الحكمة، وتنقية الاعتماد، وإعداد العبد للظهور في ساعة لا يختارها هو بل يختارها الله له.

وفيه يتجلى يوسف لا بوصفه ضحية وحسب، بل بوصفه محسنًا، داعيةً، مؤوِّلاً، ثابتًا، نافعًا، غير مستسلم لأن يجعل من ظلمه تعريفًا نهائيًا لذاته.

مفتاح الفصل

قد يُدخلك الله موضعًا يظنه الناس تعطيلاً، بينما يكون هو أكثر مراحل حياتك امتلاءً بالإعداد الخفي؛ فالسجن في سورة يوسف لم يوقف يوسف، بل أنضجه للساعة التي سيخرج فيها أكبر من خروجه الشخصي.

الفصل الخامس

من السجن إلى خزائن الأرض: كيف يخرج الرجل الذي ربّته المحنة لا
ليُنَجى فقط، بل ليحمل مجاعة أمة على كتفيه

من أبلغ ما تكشفه سورة يوسف أن الله لا يخرج بعض عباده من المحنة لكي
يريحهم فقط، بل لكي يستخدمهم بعد المحنة استخدامًا أعظم.

فالخروج في منطق البشر هو نهاية الألم، أما الخروج في منطق السورة فهو
بداية الوظيفة الكبرى.

ولذلك فإن يوسف لا يخرج من السجن ليُعَوِّض عن سنواته فحسب، ولا ليزوق
طعم البراءة الفردية فقط، بل ليبدأ طورًا جديدًا من أطوار الرسالة: طور حمل
المصلحة العامة، وتدبير الخطر القادم، وإنقاذ مجتمع كامل من آثار المجاعة.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى معنى شديد الدقة:

إن الله لم يربّ يوسف عبر الجب والسوق والمرادة والسجن ليجعله مجرد
رجل صالح ناج بنفسه، بل ليجعله رجلًا صالحًا للإمساك بلحظة تاريخية
حساسة.

فبعض النفوس يكفيها أن تنجو، أما النفوس التي يريد الله بها نفعًا واسعًا فلا
بد أن تُبنى على نحو يؤهلها لأن تتحمل أثقالًا لا تحتملها النفوس العادية.

وهكذا لا تكون المحنة مجرد تصفية للروح، بل تصبح أيضًا إعدادًا
للمسؤولية.

تبدأ هذه المرحلة برؤيا الملك: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ} [يوسف: ٤٣].

وهنا يحدث التحول الكبير الذي طال انتظاره، لكن على نحوٍ لا يصنعه يوسف بنفسه، بل يفتحه الله من خارج الزنزانة.

لقد انتهت السنوات التي بدا فيها أن كل الأبواب مغلقة، فإذا بالبواب الأعظم يُفتح من موضعٍ لم يكن يوسف يملك أن يصنعه.

وهذا من أعجب ما في السورة: حين يريد الله أن يُخرجك إلى قدرك، لا يحتاج إلى كثرة أبواب، بل إلى بابٍ واحد يفتحه في اللحظة الصحيحة.

سنواتٌ من الصمت والاحتجاز والانتظار، ثم رؤيا واحدة تقع في رأس الملك، فتبدأ حركة المشهد كله من جديد.

وهنا ندرك بعمق أكبر لماذا تأخر خروج يوسف.

فلو خرج قبل هذه اللحظة لما خرج على صلةٍ بحاجة الدولة الكبرى، ولما ارتبط ظهوره بمسألة تتجاوز ذاته إلى مصير المجتمع كله.

لكن الله أخر خروجه حتى تتشكل في الخارج أزمة تستدعي الرجل الذي بناه الله في الخفاء.

وهذه سنة عظيمة: قد لا يؤخرك الله عن الظهور لأنك غير صالح، بل لأنه يُعدّ في الخارج ظرفاً لا يليق بك إلا هو.

ثم عجزت الحاشية عن التأويل، وتذكر الناجي بعد أمة، وقال:

{أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} [يوسف: ٤٥].

ها هنا يتحرك السبب المؤجل، لا حين أراده يوسف أول مرة، بل حين أراده الله.

فالذاكرة التي تعطلت قديماً تعمل الآن، والاسم الذي نُسي يُستدعى الآن، والمعنى الذي أُخّر يبدأ ظهوره الآن.

وكان السورة تقول لك: إذا لم تتفعلك بعض الأسباب في وقتٍ ما، فليس معنى ذلك أنها ضاعت خارج سلطان الله، بل قد يدخرها الله لوقتٍ تكون فيه أكثر أثراً وأدقّ موقعاً.

ثم يأتي رسول الملك إلى يوسف بالرؤيا، فيفسرها يوسف لا تفسيراً غيبياً مجرداً، بل تفسيراً استراتيجياً ينطوي على رؤية عملية بعيدة المدى: {تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ} ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ...﴾ [يوسف: ٤٧-٤٨].

وهنا يظهر وجه آخر من عبقرية يوسف:

إنه لا يكتفي بفك شفرة الرؤيا، بل يحوّل المعنى الغيبي إلى خطة نجاة أرضية.

وهذا في غاية الأهمية؛ لأن القرآن هنا لا يقدم يوسف بوصفه رجل كرامة فحسب، بل بوصفه رجل فهمٍ وتدبيرٍ ومسؤولية عملية.

إنه لا يقول للناس: سيأتي الجوع، فاستعدوا نفسيًا فقط، بل يقدم لهم سياسة حفظ، ومنهج إدارة للموارد، وترتيبًا للسنوات الخصبة والسنوات العجاف.

كأن السورة تريد أن تهدم الثنائية الساذجة بين الروحانية والتخطيط؛ فالرجل الرباني الحق ليس من يقرأ الإشارات فقط، بل من يحسن ترجمتها إلى إجراءات تحفظ حياة الناس.

ومن هنا ينبغي أن نتأمل شيئًا بالغ العمق:

إن كل ما مرّ به يوسف سابقًا كان يكونه لهذه اللحظة.

الجب علّمه ألا ينهار حين تضيق المخرج.

والسوق علّمه أن القيمة لا تُستمد من تسعير الناس.

وبيت العزيز علّمه الطهارة تحت الضغط.

والسجن علّمه الصبر المركب، وحسن الخطاب، وتأويل الأحوال، والنفع في موضع التضيق.

فلما جاءت لحظة الدولة والمجاعة، لم يدخلها عقلًا خامًا، بل دخلها عقلًا صاغته التجربة، وهذبته المحن، ونقّته العزلة، وأضاءه الوحي.

وهكذا نفهم أن التمكين الذي لا يسبقه بناء داخلي كافٍ قد يفسد صاحبه، أما التمكين الذي يسبقه اصطفاءً طويل فإنه يصير أداة رحمة.

ثم تأتي اللحظة المدهشة:

حين أرسل الملك يدعو يوسف ليخرج، لم يخرج مباشرةً فرحًا بالخلاص، بل قال:

{ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} [يوسف: ٥٠].

وهنا يعلم يوسف أخلاقيًا ووجوديًا علوًا نادرًا.

فالمسجون المظلوم المستعجل إلى الحرية قد يقبل بالخروج بأي صورة، ولو خرج وسحابة التهمة باقية فوق رأسه، أما يوسف فلا يريد مجرد فتح الباب، بل يريد ظهور الحقيقة قبل الانتقال إلى مرحلة جديدة.

وهذا يكشف عن معدن نبيل جدًا:

إن يوسف لا يطلب النجاة المجردة، بل يطلب أن تدخل الحقيقة معه إلى الضوء.

وليس هذا تعلقًا بالصورة الخارجية فقط، بل لأن الرجل الذي سيحمل أمانة عامة لا ينبغي أن يبقى ملفه الأخلاقي معلقًا بظلال قديمة.

إنه لا يريد أن يخرج باعتباره “من أفرج عنه”، بل باعتباره من ثبتت براءته وظهر صدقه.

وهنا تعترف امرأة العزيز: {الآن حَصَّصَ الْحَقُّ} [يوسف: ٥١].

يا لها من كلمة.

إن الحق لم يمت في السنوات الماضية، ولم يضع في الضجيج، ولم يختنق تحت الهيبة الاجتماعية، بل ظل يعمل في الخفاء حتى جاءت ساعة ظهوره.

وهذا من أعظم دروس السورة:

الحق قد يتأخر، لكنه إذا كان حقًا حقًا فإنه لا يفنى، بل يقطع طريقه بصمت حتى يبلغ لحظة انكشافه.

والإنسان العميق لا يستعجل دائمًا تصديق الناس، لأنه يعلم أن مهمة المؤمن أن يثبت على الحق أولاً، ثم يترك لله هندسة الإظهار.

ثم يأتي قول يوسف: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [يوسف: ٥٢].

هذه ليست عبارة دفاعٍ شخصي ضيق، بل هي إظهار لجوهر أخلاقي نادر: الأمانة في الغيب.

فالإنسان قد يتماسك في حضور الرقابة، لكن الاختبار الحقيقي هو ما يفعله حين تُغلق الأبواب ويغيب الرقيب البشري.

وسورة يوسف تجعل شرفه الأعظم هنا أنه لم يخن في موضع الخلوة، ولم يستجب حين كان يستطيع أن يخفي استجابته عن الناس.

وهكذا يتأسس المعنى الكبير:

أن حقيقة الإنسان ليست ما يفعله أمام العيون، بل ما يفعله حين يكون قادرًا على السقوط دون افتضاح، ثم يمنعه الله وتقواه.

ثم يأتي المشهد التالي: {وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} [يوسف: ٥٤].

لم يعد الحديث عن رجل يُطلق من سجنه، بل عن رجل يُستخلص.

إنها نقلة هائلة من الإقصاء إلى القرب، ومن الاشتباه إلى الثقة، ومن الانغلاق إلى مركز القرار.

لكن السر الحقيقي ليس في هذا التحول وحده، بل في أن يوسف لم يتغير داخلياً حين تغير موقعه الخارجي.

فالرجل الذي ثبت في الجب، وتعفف في القصر، وأحسن في السجن، هو نفسه الذي يدخل الآن فضاء الدولة.

وهذه هي سلامة التكوين: أن لا تبتلعك المراحل، بل تمرّ بها وتبقى أنت عبد الله.

ثم قال الملك بعد المحاورة: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف: ٥٤].

تأمل هاتين الكلمتين: مكين أمين.

كأن السورة تختصر شروط القيادة الصالحة كلها في هذا التركيب:

القوة وحدها لا تكفي، والأمانة وحدها لا تكفي، بل لا بد من القدرة والنزاهة معاً.

ومن هنا يظهر لماذا كان لا بد ليوسف أن يمرّ بما مرّ به؛ لأن المحنة لم تصنع فيه الأمانة فقط، بل صنعت فيه أيضاً الصلابة والاتزان والبصيرة والقدرة على حمل أثقال الحكم.

ثم يأتي قوله المشهور: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ} إِنْ حَفِظْتُ عَلَى يَدَيْكَ [يوسف: ٥٥].

وهنا موضع تدبر رفيع جداً، لأن بعض القراءات السطحية قد ترى في هذا تعارضاً مع التواضع، بينما الحقيقة أن هذه الآية تؤسس لفقه بالغ النضج في مسألة المسؤولية.

فيوسف لا يطلب المنصب لهوى، ولا يعرض نفسه حباً في الظهور، ولا يتقدم بدافع تضخم الذات، بل يتقدم لأن الظرف ظرف مجاعة عامة، ولأن لديه من الصفات ما يجعله الأقدر على صيانة الأمانة وحسن التدبير.

إنه لا يزكي نفسه تزكيةً عبثية، بل يعرف بالكفاءة اللازمة لحماية الناس.

وفي هذا درس عظيم للأمة:

ليس الزهد الصحيح أن يترك الأكفاء مواقع الحاجة إذا تعيّن فيهم الأهلية، بل الزهد الصحيح أن يدخلوا تلك المواقع بنية الخدمة لا الشهوة، وبقلب لا يعبد الكرسي، وبوعي أن المنصب أمانة ثقيلة لا زينة شخصية.

ولهذا قال: حفيظ عليم.

الحفيظ: الذي يصون، لا يبدد، ولا يخون، ولا يستهلك مقدرات الناس لنفسه.

والعليم: الذي يعرف كيف يدير، ويقدر، ويخطط، ويضع الشيء في موضعه.
فلو وُجد الحفظ بلا علم فسدت الإدارة، ولو وُجد العلم بلا حفظ فسدت الأمانة.
أما اجتماع الاثنين فهو سرّ النجاة العامة.

ثم يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ٥٦].

لاحظ أن السورة هنا تعود إلى لفظة “التمكين” التي سبق أن أشارت إلى بداياته وهو في بيت العزيز.

وكأن القرآن يريد أن يربط النهاية بالبدايات ربطاً واضحاً: هذا الذي ترونه الآن من سلطان وقرار وثقة ومكانة، لم يبدأ الآن، بل بدأ هناك، في المراحل التي لم يكن أحد يراها تمكيناً.

فكل خطوة سابقة كانت لبنة في هذا الموضع.

وهنا يكتمل معنى كبير جداً: التمكين ليس انفجاراً مفاجئاً في حياة المؤمن، بل هو حصيلة تراكمية لتربية إلهية طويلة.

ثم تأتي العبارة: {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٥٦].

والإحسان هنا يعود بوصفه الخيط الثابت في السورة.

فيوسف كان من المحسنين في البيت، وفي الفتنة، وفي السجن، وفي التأويل، وفي الخطاب، وفي الصبر؛ فجاء التمكين ثمرةً لذلك الإحسان الذي لم ينقطع بتغير الظروف.

وهذا قانون قرآني جليل:

الإحسان إذا استمر في الخفاء والضيق، جاء يوم يكشفه الله في السعة والظهور.

ولكنه لا يكشفه دائماً على صورة “مكافأة شخصية” فقط، بل قد يكشفه على صورة أن يجعل صاحب الإحسان سبباً في رحمة الناس جميعاً.

وهنا ينبغي أن نلتفت إلى أن يوسف لم يخرج إلى التمكين ليستريح، بل ليدخل مرحلةً أشدّ تعباً من جهة المسؤولية.

فالجِب كان أَلَمًا شخصيًا، والسجن كان حبسًا فرديًا، أما خزائن الأرض فهي حمل لمصائر الناس، وإدارة لسنوات الخصب والقحط، وضبط لموارد أمة، وتدبير لأزمة لا تترك مجالاً للعبث.

وهذا يكشف أن الله حين يفرّج عن بعض عباده لا يفرّج عنهم دائماً إلى الراحة، بل قد يفرّج عنهم إلى مستوى أعلى من التكليف.

فالنجاة الحقيقية ليست أن يزول ألمك فقط، بل أن يهيئك الله لتكون بعد ألمك نافعاً على نحوٍ أعظم.

ومن هنا يمكن أن نقرأ هذه المرحلة كلها في ضوء عبارة جامعة:

يوسف لم يخرج من السجن ليبدأ حياته، بل خرج وقد كانت حياته الحقيقية قد بُنيت هناك، فدخل إلى الحكم لا ليصنع نفسه، بل ليستخدم ما صنعه الله فيه.

وهذا من أدق ما يمكن أن يُفهم من السورة في هذا الموضع؛ لأن الناس غالبًا يظنون أن الإنسان يصير كبيرًا حين يصل إلى المنصب، بينما سورة يوسف تعلّمك أن المنصب ليس هو الذي يصنع الإنسان، بل الإنسان إن لم يكن قد صنّع قبل المنصب أفسده المنصب أو فضحه.

أما إذا صاغته المحنة، وربّاه الله على الصبر والعفة والإحسان والبصيرة، فإن المنصب يصبح ساحةً لظهور ما بناه الله فيه، لا لخلق شيء جديد من العدم.

خلاصة الفصل

إن خروج يوسف من السجن إلى خزائن الأرض ليس انتقالًا من ضيقٍ إلى سعة فقط، بل هو انتقال من طور الصياغة الخفية إلى طور الوظيفة العظمى.

لقد ربّته المحنة حتى صار صالحًا لأن يحمل أزمة مجتمع، ويؤمن على أرزاق الناس، ويجمع بين الأمانة والكفاءة، وبين نور الوحي وحسن التدبير، وبين سلامة الداخل وقوة الخارج.

مفتاح الفصل

الله لا يخرج بعض عباده من السجن ليريحهم فقط، بل ليضع على أكتافهم من بعده أماناتٍ لا يحملها إلا من تهذب في الخفاء، وتطهر في الفتنة، ونضج في التأخير.

الفصل السادس

عودة الإخوة: كيف يختبر الله الطاهر بعد التمكين في أخطر امتحانٍ آخر، وهو امتحان القدرة على حمل الماضي دون أن يتحول إلى انتقام

إذا وصل القارئ في سورة يوسف إلى لحظة التمكين، فقد يظن أن الامتحان قد انتهى، وأن الرجل الذي اجتاز الجب والمراودة والسجن لم يبق له إلا أن يجني ثمار صبره، لكن السورة — في عظمتها التربوية الباهرة — لا تتركك عند هذا الفهم السهل؛ لأنها تكشف لك أن بعض أخطر الامتحانات لا تأتي قبل القوة فقط، بل بعدها.

فما أكثر من صبروا حين كانوا ضعفاء، فلما قويت أيديهم سقطت قلوبهم، وما أكثر من حفظوا أنفسهم من الشهوة، لكنهم لم يحفظوها من نشوة القدرة، ولا من لذة ردّ الأذى، ولا من غواية إذلال من كانوا سبباً في جرحهم.

وهنا تبلغ سورة يوسف في صناعة الإنسان مقاماً رفيعاً نادراً: إنها لا تكتفي بأن تبني يوسف في طور الضعف، بل تمتحنه في طور القدرة؛ لأن الكمال الإيمان لا يظهر فقط في احتمال الظلم، بل في كيفية التصرف حين يصبح المظلوم قادراً.

قال تعالى: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ} [يوسف: ٥٨].

هذه آية ثقيلة جداً من الناحية النفسية.

المشهد ليس مجرد دخول زبائن على مسؤول الدولة، بل دخول الماضي كله على الحاضر.

الوجوه التي ألقت، وكادت، وكذبت، وصنعت الفقد الطويل، تعود الآن وتقف بين يدي من ألقت به يوماً في الحب.

وليس هذا لقاءً عابراً، بل لحظة تتزاحم فيها الذاكرة والقدرة، والجرح القديم والمقام الجديد، والحقيقة التي يعرفها يوسف وحده في تلك اللحظة، والجهل الذي يكتنفهم هم.

{فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ}.

يا لها من جملة مزلزلة.

إنها تختصر اختلال الموازين الذي تصنعه المقادير في أعين البشر.

هم يرونه الآن من علٍ ولا يعرفونه، لأنه خرج من صورتهم القديمة كلها.

أما هو فيعرفهم؛ لأنه حمل صورتهم في ذاكرته طويلاً، لكن معرفته الآن ليست معرفة العاجز المجروح، بل معرفة القادر الممسك بالمشهد كله.

وهنا يبدأ أخطر اختبار:

ماذا يفعل الإنسان إذا اجتمع له أمران معاً: الذاكرة والسلطة؟

إذا كان يملك أن يستحضر ما جرى له، ويملك في الوقت نفسه أن يعاقب، أو يفضح، أو يُذل، أو يقتصّ على نحوٍ يروي غليل النفس؟

في هذا الموضع بالذات تتمايز النفوس.

فالنفوس الصغيرة ترى في التمكين فرصةً مؤجلةً للنَّار، أما النفوس التي ربَّها الله طويلاً فإنها ترى في التمكين اختباراً جديداً، لا امتيازاً مطلقاً.

ولذلك لا يتعجل يوسف كشف نفسه، ولا يستجيب لأول موجة شعورية قد تصاحب هذا اللقاء، بل يبدأ بإدارة المشهد بهدوء بالغ، وبحكمة متدرجة، وبناء تربوي عميق لا يُفهم إلا إذا قرأته السورة بوصفها سورة إصلاح للقلوب لا سورة انتقام.

ثم لما جهزهم بجهازهم قال: {اَتْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ} [يوسف: ٥٩].

وهنا لا يصح أن يُفهم طلبه فقط على أنه اشتراط إداري، بل هو بداية إدخال الإخوة في مسارٍ ستتكشف فيه نفوسهم، وسيُستخرج منهم ما لم يكن قد استُخرج بعد.

يوسف لا يواجههم من اللحظة الأولى بقوله: أنا أخوكم الذي ظلمتموه، لأن المواجهة المباشرة السريعة قد تُخرج اعترافات مذعورة أو دفاعات مرتبكة، لكنها لا تصنع التحول العميق في الداخل.

أما هو فيريد شيئاً أعلى من مجرد الصدمة: يريد أن يعيد تحريك ضمائرهم.

وهنا يظهر من جديد أن الرجل الذي علَّمه الله تأويل الأحاديث لا يقرأ الرؤى فقط، بل يقرأ النفوس أيضاً.

إنه يعلم أن بعض القلوب لا تُستخرج منها الحقيقة إلا بمسار، ولا تُوقظها المواجهة الفورية بقدر ما توقظها التجربة المعادة، والامتحان الذي يعيدها إلى موضعها الأول لكن بصيغة جديدة، حتى ترى نفسها في المرأة.

ثم ردّ بضاعتهم في رحالهم.

وهذا الفعل في غاية الجمال والدقة.

إنه ليس مجرد لطف مالي، بل هو إشارة إلى أن يوسف لا يتحرك من منطق العقوبة النفسية المجردة، بل من منطق يمزج بين الحزم والإحسان، بين إدارة الخطة وبين إبقاء باب الخير مفتوحًا.

ومن هنا نبدأ نفهم أن يوسف لا يريد إذلالهم، بل يريد الوصول بهم إلى الموضع الذي يعترفون فيه من داخلهم، لا تحت السوط الخارجي فقط.

ثم يعودون إلى أبيهم، وتبدأ الحركة الثانية في السورة، حيث يدخل بنيامين في المشهد.

وهنا يتجدد الألم في بيت يعقوب، ويتجدد الحذر، ويتجدد رعب الفقد.

ومن عجيب بناء السورة أن الماضي لا يموت فيها سريعًا، بل يبقى حيًا في القلوب، وتبقى آثاره ممتدة حتى بعد مرور السنوات.

وهذا من صدق القرآن في تصوير النفس البشرية:

إن الجراح العميقة لا تُمحي بالتقادم وحده، بل تبقى آثارها في الحس، وفي اللغة، وفي طريقة استقبال الأحداث المشابهة.

ولذلك قال يعقوب: {هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ} [يوسف: ٦٤].

إنها جملة فيها كل تاريخ الألم.

والأب الذي ذاق الخيانة مرة لا يستطيع أن يتعامل ببراءة سابقة كأن شيئاً لم يكن.

وهنا تعلمك السورة أن الصفح أو الإيمان أو الصبر لا يعني محو الذاكرة النفسية في الدنيا على الفور، فالإنسان قد يبقى يحمل آثار ما جرى، لكنه يضعها تحت سلطان الله ولا يدعها تفسده.

ثم تجري الأحداث حتى يدخلوا على يوسف بأخيه، وهنا يبلغ المشهد من الرقة ما لا يخفى: {إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يوسف: ٦٩].

هذه العبارة من أحن ما في السورة والطفه.

فيوسف، على رغم كل التكوين العظيم الذي مرّ به، ما زال يحمل وفاء الأخوة، وما زال يعرف كيف يسكب الطمأنينة في قلب أخيه، لا كيف يحول اللقاء إلى مساحة تضخيم للجرح القديم.

وهنا يبدو أن الألم الذي ربّاه الله به لم يفسد حنانه، بل صقله.

وهذا من أندر ما في التربية الإلهية: أن تخرج من المحنة أصفى لا أشد قسوة، وأن يصير وجعك باباً للفهم لا مصنعاً للغلظة.

ثم تبدأ الخطة المتعلقة بالصواع.

والناس كثيراً ما يقرأون هذا الموضع على ظاهر الحيلة، لكن موضع التدبر الأعمق هنا أن يوسف لا يتحرك في نزوة شخصية، ولا في رغبة استمتاع بإيلام إخوته، بل في مسارٍ يريد أن يبلغ بهم إلى لحظة انكشاف، وإلى إعادة ترتيب البيت كله على أساس الحقيقة التي تأخرت كثيراً.

والذي يؤكد ذلك أن السورة لا تمضي بهم إلى مجرد اقتضاح، بل إلى انكسار داخلي واعتراف أخلاقي.

ثم حين وُجد الصواع في رحل أخيه، وبدأ التوتر يبلغ أقصاه، قالوا: {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} [يوسف: ٧٧].

وهنا تتجدد الدهشة النفسية في السورة.

حتى الآن، وحتى في هذا الطرف، ما زال فيهم بقية من الرواية القديمة المشوهة، وبقية من الاستعلاء الدفاعي، وبقية من السهولة في رمي يوسف بما لا يليق.

إن النفس إذا لم تتطهر تماماً قد تعود عند الشدة إلى مخزونها القديم من التبرير والاتهام.

وهذا يجعل ما يفعله يوسف أعظم؛ لأنه يسمع هذا ولا ينفجر، بل {فَأَسْرَهَا
يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ} [يوسف: ٧٧].

هذا الكتمان هنا ليس ضعفًا، بل قوة هائلة في ضبط النفس.

إن القدرة على أن تسمع ما يوجعك من خصمك القديم وأنت قادر على الرد
الساحق، ثم تحبس فورانك من أجل غاية أعلى، هي من علامات النفوس التي
غلبت نفسها حقًا.

فالإنسان قد ينتصر مرة على الشهوة، لكنه قد لا ينتصر على الغضب.

وقد يقهر رغبته، لكنه لا يقهر كرامته الجريئة حين تُمسّ.

أما يوسف فقد جاز هذا كله؛ لذلك كان أهلاً لمقام النبوة، ومقام الصفح، ومقام
لمّ الشمل.

ثم تبلغ الأزمة ذروتها حين يرجع الإخوة إلى أبيهم، ثم يعودون إلى يوسف
في حالٍ من الانكسار الشديد، ويقولون: {يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ}
[يوسف: ٨٨].

هنا لم يعودوا أولئك الواثقين من عصبتهم، ولا أولئك الذين قالوا: {وَنَحْنُ
عُصْبَةٌ} [يوسف: ٨].

هنا انكسر القشر الخارجي، وظهر الإنسان المحتاج، الضعيف، المأزوم،
المعترف ضمناً بعجزه.

وهذا التحول في غاية الأهمية؛ لأن الله أحياناً لا يصلح بعض النفوس بالموعة المباشرة، بل بتقليبها في المقادير حتى تسقط عنها دعاوى القوة والاكتفاء.

ثم تأتي اللحظة التي ينتظرها الوجدان كله: {قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ} [يوسف: ٨٩].

ما أعجب هذه الصياغة.

فهو لا يقولها صياغة المتشفي، ولا صياغة من يريد أن يسحقهم بالعار، بل صياغة من يريد أن يفتح لهم باب الوعي بما اقترفوا.

حتى في المواجهة اختار كلمة: {إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ}.

وهذا ليس تبريراً للخطيئة، بل وضع لها في سياقها الذي يسمح بالتوبة والرجوع.

كأنه يقول: ما فعلتموه كان فظيئاً، لكنه كان أيضاً فعل جهالة، وأنا أفتح لكم الآن باب الخروج من تلك الجهالة إلى الاعتراف.

وهنا يعترفون: {تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} [يوسف: ٩١].

هذه من أعظم لحظات السورة كلها.

لقد استيقظت الحقيقة أخيراً في داخلهم، لا لأن يوسف مارس عليهم إذلالاً انتقامياً، بل لأن الله ساقهم عبر تجربة كشفت لهم أنفسهم، وعرفتهم بالفارق بين منطق الحسد القديم ومنطق الاصطفاء الإلهي.

إنهم الآن لا يعترفون بالخطأ فقط، بل يعترفون أيضاً بأن الله أثر يوسف عليهم.

وهذا مهم جداً؛ لأن أصل مشكلتهم كان مع هذا الاصطفاء نفسه، مع هذه الأفضلية التي ضاقوا بها في أول السورة.

فلما نضجوا قالوا بالسنتهم ما كانت قلوبهم قد ثارت عليه قديماً.

وهنا تبلغ السورة ذروة المجد الأخلاقي في جواب يوسف: {قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} [يوسف: ٩٢].

يا لها من آية، ويا له من إنسان صنعه الله حتى صار يجيب بهذا الجواب.

إن “لا تثريب” ليست مجرد مسامحة عابرة، بل إعلان بإسقاط اللوم والمواخظة والتعيير في لحظة القدرة الكاملة.

ولو شاء لعدد عليهم ما فعلوا، ولو شاء لأطال مشهد الاعتراف، ولو شاء لأذاقهم من الذل المعنوي ما يوازي بعض ما ذاق، لكنه لم يفعل.

لأنه لم يكن يريد أن يربح المعركة النفسية ضدهم، بل أن يربح الإنسان فيهم، وأن يظهر اللحظة من ثقل الماضي بقدر الإمكان.

ثم قال: {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ} [يوسف: ٩٢].

انظر كيف ارتفعت اللحظة من أفق العفو البشري إلى أفق الدعاء لهم بالمغفرة الإلهية.

وهذا هو العفو الذي يشبه الأنبياء فعلاً:

ليس مجرد كف اليد، ولا مجرد ترك العقوبة، بل انتقال القلب من التمكن من الخصم إلى تمني الخير له بعد اعترافه ورجوعه.

وهنا نرى أن يوسف لم يكن فقط قوياً في الصبر، بل قوياً أيضاً في التجاوز. والتجاوز بعد القدرة من أصعب ما يبلغه الإنسان، لأنه يحتاج إلى قلب لم يعد الماضي يملكه، وإلى نفس صارت ترى يد الله في القصة كلها أوسع من يد البشر في فصولها المؤلمة.

وهنا ينبغي أن نقف عند معنى بالغ الجلال:

لماذا استطاع يوسف أن يعفو هذا العفو؟

لأن السورة رتبته طويلاً على أن يرى الأحداث في ضوء الله لا في ضوء النفس وحدها.

ولو كان يقرأ قصته من زاوية: “هم فعلوا بي” فقط، ل بقي أسير الجرح.

لكنه صار يقرأها من زاوية: “الله دبّرني عبر ما فعلوا”.

وهذا فرق هائل.

فالذي يرى الناس وحدهم في أسباب ألمه قد يعجز عن تجاوزهم، أما الذي يرى فوقهم يد الله اللطيفة التي حوّلت كيدهم إلى طريق تمكين، فإن جرحه يخفّ؛ لا لأن ما فعلوه صار حسناً، بل لأن الله استخرج من وراء سوء فعلهم خيراً واسعاً.

ومن هنا يمكن أن نفهم أن أعظم ما امتحن الله به يوسف بعد التمكين لم يكن إدارة الجوع وحدها، بل إدارة الذاكرة.

أن يحمل ماضيه دون أن يتحول إلى سلاح انتقام، وأن يملك الحقيقة دون أن يجعلها مطية للإذلال، وأن يقف فوق الجرح لا لأنه نسيه، بل لأنه تجاوزه بالله.

خلاصة الفصل

إن عودة الإخوة في سورة يوسف ليست مجرد خطوة نحو لمّ الشمل، بل هي امتحان أخير لتمام التكوين:

هل يظل يوسف طاهراً حين يقدر كما كان طاهراً حين ابتلي؟

والجواب أن نعم؛ فقد أدار اللقاء بحكمة، واستخرج من إخوته الاعتراف، ثم عفا عند القدرة، ودعا لهم بالمغفرة، وأثبت أن الكمال الإيماني لا يكتمل بالصبر على الأذى فقط، بل بالسمو فوقه حين يصبح صاحبه قادراً على الرد.

مفتاح الفصل

أخطر امتحانات الإنسان ليست دائماً في لحظات ضعفه، بل في لحظات قوته؛ ويوسف نجح لأنه لم يجعل التمكين فرصةً للثأر، بل جعله مقاماً لإصلاح ما أفسده الماضي.

الفصل السابع

يعقوب ويوسف ولمّ الشمل: كيف تعلّمك السورة أن الفقد إذا سلّم لله لا يضيع، وأن الرؤيا التي حفظها الصبر تعود في آخر الطريق واقعًا يمشي على الأرض

إذا بلغت هذا الموضع من سورة يوسف، فأنت لا تكون أمام خاتمة قصة فحسب، بل أمام انكشاف البناء كله؛ كأن السورة كانت منذ أولها تنسج خيوطًا متباعدة في نظر العيون، ثم ها هي الآن تجمعها في مشهدٍ واحد، فيكشف لك أن ما بدا متفرقًا لم يكن متفرقًا في علم الله قط، وأن ما بدا لكسرٍ هنا، وغيابٍ هناك، وتأخيرٍ هنالك، إنما كان يسير في عمق التقدير نحو لحظةٍ جامعة يتلاقى فيها الوعد الأول مع الصبر الطويل، وتلتئم فيها الذاكرة المجروحة مع الرحمة، ويعود فيها ما فقد لا بالهيئة نفسها التي فقد بها، بل بعد أن يكون الله قد مرّره عبر مدرسةٍ من التصفية والإنضاج والتعريف بذاته سبحانه وبسننه.

ولذلك فإن هذا الفصل لا يصح أن يُقرأ على أنه مشهد عاطفي جميل وحسب، بل ينبغي أن يُقرأ بوصفه اللحظة التي يظهر فيها معنى اللفظ الإلهي ظهورًا كاملاً بعد أن ظل يعمل في الخفاء طويلاً.

فهنا لا يعود الحديث فقط عن نجاة يوسف، ولا عن عفو الإخوة، بل عن شيء أعمق: عن مصير الحزن المؤمن إذا لم ينقلب إلى اعتراض، وعن مصير

الرؤيا إذا حرسها الصبر، وعن مصير القلب الذي ظل موصولاً بالله وهو يسير في ليلٍ طويل.

قال تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِقَمِيصِهِ الْقُوَّةَ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا} [يوسف: ٩٦].

يا لها من آية مشبعة بالمعنى من كل جهة.

القميص الذي دخل السورة أول مرة شاهدًا على التزوير يعود الآن شاهدًا على التجلي.

وهنا تبلغ رمزية القميص في السورة تمامها المدهش؛ فقد كان في البداية وسيلة تمويه بالكذب، ثم صار في الوسط شاهدًا على البراءة، ثم صار في النهاية واسطة ردّ النور إلى عين الأب.

كأن السورة تريد أن تقول: إن الله لا يترك أدوات القصة مبعثرة، بل يعيد تدويرها داخل بنائه العجيب حتى يصير الشيء الذي ارتبط في أول الطريق بالألم شاهدًا في آخر الطريق على الجبر.

وهذا من ألطف أسرار سورة يوسف:

الله لا يجبرنا غالبًا بموادّ غريبة عن قصة ألمنا، بل قد يجعل من داخل القصة نفسها مادة الجبر.

فمن الموضع الذي دخل منه الجرح، قد يدخل الشفاء.

ومن الشيء الذي ارتبط في الذاكرة بالفقد، قد يجعل الله عودة المعنى.

ولذلك فالقميص هنا ليس مجرد قطعة ثوب، بل هو رمزٌ لسنة كبرى: أن الله قادر أن يخرج من نفس خيوط الابتلاء نسيج العزاء.

ثم تأمل قوله: {فَارْتَدَّ بَصِيرًا}.

ليس فقط رجعت إليه القدرة الحسية على الإبصار، بل كأن السورة ترمز أيضًا إلى أن الحزن الطويل إذا كان موصولًا بالله لا يطفئ البصيرة، بل قد يؤجل بعض مظاهرها حتى تأتي ساعة الكشف.

يعقوب عليه السلام لم يكن أعمى البصيرة قط، وإن غلب على عينيه البياض من الحزن.

بل كان يرى من وراء الأحداث ما لم يره بنوه، ويشم من قميص يوسف ما لا يشمه غيره، ويقول: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} [يوسف: ٩٤].

وهذه العبارة من أرق ما في السورة وأعمقه.

إنها ليست مجرد إحساس عجائبي، بل شهادة على أن القلب إذا طال مقامه مع الله، وصار حزنه حزنًا متعبّدًا لا حزنًا متسخطًا، نال من اللطائف والأنوار ما لا تناله الحواس العادية.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى شيء بالغ الرهافة:

يعقوب لم يقل: أذكر يوسف، ولا أتمنى يوسف، ولا أرجو يوسف، بل قال:
{أَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ}.

كأن الغائب الذي كان بعيداً جغرافياً وزمنياً بدأ يدخل دائرة الحضور الوجداني المباشر.

وهذا من المعاني التي لا تُفهم فقط بالمنطق الحسي، بل بمنطق الصلة الطويلة بين القلب وربّه.

فثمة قلوب إذا صدقت في الصبر، وفي عدم اليأس، وفي عدم التبرم من أقدار الله، يفتح الله لها من الإشارات والأنس ما يخفف عنها ليلها، بل ربما يقرب إليها بشائر الفرج قبل أن تراه العيون.

ثم انظر إلى جواب بنيه: {تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [يوسف: ٩٥].

إنها قسوة الجاهل على قلب المؤمن العارف.

فمن لا يفهم مقامات الرجاء، ولا أسرار القلوب المتصلة بالله، قد يفسر ثبات صاحبها على أنه وهم، وقد يفسر رجاءه على أنه ضلال قديم.

وهذه من سنن الطريق الإيماني: أن بعض الناس إذا لم يشاركوك نورك سمّوه ظناً، وإذا لم يذوقوا عمق يقينك سمّوه تعلقاً مرضياً، وإذا لم يفهموا شرك مع الله أولّوه بما يوافق محدودية إدراكهم.

لكن يعقوب لم تهزه هذه الكلمة؛ لأنه لم يكن يعيش على تفسيرهم، بل على ما يعلمه من ربّه.

ثم لما انكشف الأمر قال لهم: {أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٩٦].

هذه الآية من أعظم آيات التربية القلبية في السورة.

فليس معناها أن يعقوب يعلم الغيب استقلالاً، حاشاه، بل معناها أن عنده من المعرفة بالله، وبسننه، وبسعة رحمته، وبأن الفقد ليس نهايةً دائماً، ما لا يملكه هؤلاء الذين قصرُوا نظرهم على ظاهر الوقائع.

إنه يعلم من الله سعةً لا يراها ضيقُهم، ويعلم من لطفه ما لا تبلغه حساباتهم، ويعلم أن الله إذا تعلّق القلب به لم يعد الطريق يقرأ فقط بمقدار ما تراه العيون.

وهذا هو جوهر الفرق بين المؤمن العارف وغيره:

أن الأول لا يبني قراءته للأحداث على ظاهرها وحده، بل على معرفته بمن وراء الأحداث.

ثم يقول بنوه: {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} [يوسف: ٩٧].

وهنا يكتمل شيء مهم جداً في بناء السورة: أن القصة لا تنتهي فقط بعفو يوسف، بل تمتد إلى تحرك الإخوة نحو مقام آخر هو مقام طلب الاستغفار.

وهذا يعني أن السورة لا تريد إصلاح الظاهر العائلي فقط، بل تريد أن تنقل الجناية من حيز الذكرى المؤلمة إلى حيز الذنب المعترف به الذي يُطلب له الغفران.

وهذا مهم جداً؛ لأن بعض الناس قد يعتذرون اجتماعياً، لكن السورة تريد ما هو أعمق: أن يصير الخطأ معروضاً بين يدي الله، لا بين يدي الناس فقط.

ولذلك قال يعقوب: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي} [يوسف: ٩٨].

وفي “سوف” هنا فسحة تأملية عظيمة؛ فهي تشي بأن الاستغفار ليس كلمة عابرة تُلقى لتمضي اللحظة، بل مقام يحتاج إلى حضور قلب، وربما إلى وقتٍ أنسب، وإلى استجماع روح الأب الذي اكتوى طويلاً ثم ها هو الآن يعالج الجراح كلها بإحالتها إلى الله.

وهنا يظهر يعقوب في مقام الأبوة النبوية العظمى: لم يجعل من خطأ أبنائه سبباً لإغلاق باب السماء عليهم، بل بقي واسطة رحمة لهم، كما بقي يوسف واسطة صفح لهم.

فاجتمع في آخر السورة أبٌ يستغفر، وأخٌ يعفو، وإخوةٌ يعترفون؛ وهكذا يكتمل البناء الأخلاقي للأسرة بعد أن تشظى طويلاً بالحسد والكذب والفقد.

ثم تنتقل السورة إلى اللحظة الكبرى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} [يوسف: ٩٩].

هذه الآية ليست مجرد استقبال عائلي مؤثر، بل هي لحظة رد الاعتبار الوجودي لكل ما فقدوه.

يوسف الذي خرج من حضن أبيه صغيراً يعود الآن ليدخل أبويه إلى حضنه السلطاني الرحيم.

ويا لهذا الانقلاب الجميل.

ليس انقلاباً في المكانة فقط، بل في هيئة اللقاء نفسه:

الابن الذي كان موضوع خوف الأب صار موضع الإيواء للأب.

والغائب الذي كان سبباً للبكاء صار سبباً للأمان.

والطفل الذي أُلقي في الجب صار رجلاً يستقبل الذين طال عليهم الليل.

وهكذا تفعل التربية الإلهية العميقة: لا تعيد الأشياء كما كانت حرفياً، بل تعيدها بعد أن تكون قد مرت بمرحلة تحول تجعل العودة أغنى من البداية.

ثم قال: {وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف: ٩٩].

تأمل “آمنين”.

كأن السورة كانت منذ أولها تتحرك كلها نحو هذه الكلمة.

منذ كان يوسف في بيت أبيه ولم يأمن كيد إخوته، ومنذ كان في الجب، وفي السوق، وفي بيت العزيز، وفي السجن، ومنذ كان يعقوب في خوف الفقد، والبيت في اضطراب التمزق، والقلب في محنة الانتظار — والسورة كلها تمشي نحو لحظة يُقال فيها أخيراً: آمنين.

وهذا من أعظم ما تبنيه سورة يوسف في الإيمان: أن الأمن الحق لا يأتي فقط من زوال الخطر الخارجي، بل من انكشاف يد الله التي كانت تحملك عبر كل مراحل الخوف حتى تبلغ موضع السكينة.

ثم يبلغ المشهد ذروته: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف: ١٠٠].

هنا يعود أول السورة في آخرها.

الرؤيا التي بدت لطفل صغير شيئاً غامضاً بعيداً، والتي مرّت فوقها سنوات الحب والبيع والغربة والفتنة والسجن والجوع والرجوع، ها هي الآن تتحقق لا في المنام، بل على أرض الواقع.

وهنا ينكشف الدرس الذي لا ينبغي أن يفارق القلب:

الرؤيا الصادقة التي يحرسها الله لا يقتلها طول الطريق.

قد تتوارى تحت ركام الوقائع، وقد تبدو بعيدة كل البعد عن التحقق، وقد يمر عليها ما يمر من الانكسارات، لكن إذا كانت من الله فإن الزمن لا ينسخها، بل ينضجها، والابتلاء لا يدفنها، بل يهيئ أهلها لاستقبالها على نحوٍ أتم.

ولذلك قال يوسف: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [يوسف: ١٠٠].

يا لجمال هذا الأدب.

لم يقل: ها قد تحققت كما توقعت، ولا قال: ها قد صدق حدسي، بل قال: {قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}.

فحتى في لحظة تحقق الرؤيا، لا ينسب الأمر إلى نفسه، ولا إلى مهارته في الصبر فحسب، بل يرده إلى الله الذي جعلها حقًا.

وهنا يبلغ التوحيد ذروته في السورة:

ليس فقط أن يوسف استند إلى الله في الجب، ولا استعاذ به في الفتنة، ولا افتقر إليه في السجن، بل حتى في لحظة التحقق القصوى بقي موصولاً به، مردداً كل الفضل إليه.

ثم تأمل ما بعد ذلك: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ} [يوسف: ١٠٠].

والعجيب أنه لم يقل: إذ أخرجني من الجب، مع أن الجب كان البداية الأولى للآلم، بل قال: من السجن.

وقد وقف أهل العلم عند هذا طويلاً، وفي مقام التدبر تظهر هنا رهافة أخلاقية نادرة:

كأن يوسف — وهو في حضرة إخوته بعد الصبح — لا يريد أن يفتح جرح الجب مرة أخرى على وجه يحرجه، فاكتفى بذكر السجن، وهو ألم لا يُنسب مباشرة إليهم في هذا المشهد.

فيا لها من نفس!

حتى وهو يذكر نعمة الله عليه، ينتقي من فصول ألمه ما لا يفضحهم أكثر.

إنها أخلاق من لا يريد الانتصار السردي على خصومه السابقين، بل يريد أن يُبقي ستر العفو حيًّا حتى في لغة الاسترجاع.

ثم تأتي الآية العظيمة: {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف: ١٠٠].

يا لهذه العبارة التي تفيض رقيًا ونبلاً.

إنه لا يمحو مسؤوليتهم، لكنه يعيد النظر إلى المشهد من أفقٍ أوسع، يرى فيه أثر الشيطان في النفوس، ويرى كيف تدخل النزغات بين الأقربين فتفسد المودة، وتدفع إلى ما لا تليق به الفطرة السليمة.

وهذا من تمام العفو؛ أن لا تختزل من ظلمك في أفعاله فقط، بل تنتظر أيضًا إلى العوامل التي أفسدته، لا لتبرره، بل لتفهمه فهمًا يسهل على قلبك العبور إلى الصفح.

ثم تأتي الجملة التي يمكن أن تُعد مفتاح الخاتمة كلها: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ} [يوسف: ١٠٠].

هذه الجملة ليست ثناءً عامًا مجردًا، بل خلاصة تجربة كاملة.

كأن يوسف يقول: الآن فقط أستطيع أن أرى كيف كان لطف الله يعمل في كل شيء؛ في الحب الذي لم يكن قبرًا بل معبرًا، وفي السوق الذي لم يكن امتهانًا نهائيًا بل نقلة، وفي بيت العزيز الذي كان موضع فتنة وتربية، وفي السجن الذي بدا تعطيلاً وكان إعدادًا، وفي المجاعة التي أعادت الإخوة، وفي القميص

الذي ردّ البصر، وفي كل منعطفٍ بدا في حينه مؤلماً منفصلاً، ثم انكشف بعد ذلك جزءاً من نسقٍ لطيف محكم لا يراه إلا من اكتملت عنده الصورة.

واللفظ هنا ليس مجرد الرحمة الرقيقة، بل التدبير الخفي الذي يعمل تحت سطح الأحداث حتى يبلغ بها غاياتها من حيث لا يشعر الناس.

فاللطيف لا يدفعك دائماً بالطرق الصريحة، بل قد يسوقك بالمنع، وبالتأخير، وبالالتواء الظاهري في المسار، وبما تحسبه خسارة، ثم يريك في النهاية أن كل ذلك كان رفقاً من نوع أعلى، وحكمة من نوع أعمق، ورحمة لا يفهمها القلب إلا بعد أن يمرّ بطريقها.

ثم تأتي الخاتمة الكبرى في دعائه: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

هنا يبلغ الكمال الإيمانى ذروته.

فالرجل الذى تحقق له الملك، واجتمعت له الأسرة، وظهرت براءته، وتمت رؤياه، وكملت نعمته — ما الذى يطلبه فى نهاية المطاف؟

لا يطلب دوام الملك، ولا مزيداً من النفوذ، ولا ثأراً من التاريخ، ولا تثبيتاً للسلطان، بل يطلب: {تَوَفَّنِي مُسْلِماً}.

وهذا وحده يكشف لك الميزان الحقيقى للسورة كلها:

أن كل ما جرى لم يكن غايته النهائية أن يصير يوسف عزيز مصر فحسب، بل أن يخرج من هذه الرحلة كلها عبدًا كامل الوجهة إلى الله، لا تفسده النعمة بعد أن لم يفسده البلاء.

وهذه من أعظم رسائل سورة يوسف للإنسان:

أن النجاح النهائي ليس في أن تعود لك الأشياء التي فقدتها فقط، ولا في أن تتحقق رؤاك فحسب، ولا في أن يُنصفك التاريخ، بل في أن تصل إلى نهاية كل ذلك وقلبك ما يزال ساجدًا لله، عارفًا أن الدنيا كلها — بجبّها وسجنها وعرشها ولمّها ودموعها — ليست إلا ممرًا إلى حسن الخاتمة.

خلاصة الفصل

إن خاتمة سورة يوسف ليست مجرد نهاية سعيدة لقصة مؤلمة، بل هي انكشاف السنن كلها دفعةً واحدة:

انكشاف أن الفقد إذا عاش في كنف الصبر واليقين لا يضيع، وأن الرؤيا إذا حفظها الله لا يقتلها طول الطريق، وأن الحزن إذا لم يفسد صلة القلب بالله يتحول في النهاية إلى باب معرفة، وأن اللفظ الإلهي قد يظل يعمل صامتًا خلف الجب والسوق والسجن والسلطان حتى يجمع الشتات في لحظة واحدة، فيرى العبد أخيرًا أن ما حسبه مفككًا كان في علم الله بناءً واحدًا متصلًا.

مفتاح الفصل

ما ضاع في سورة يوسف لم يكن ضائعاً عند الله، وما تأخر لم يكن منسياً، وما انكسر لم يكن خارج الجبر؛ لأن اللطيف سبحانه كان ينسج من الغياب حضوراً، ومن الحزن بصيرة، ومن الرؤيا المؤجلة واقعاً مكتملاً في أوانه.

الفصل الثامن

سورة يوسف: كيف يبني الله الإنسان بين الرؤيا والجرح والفتنة والقدرة حتى يبلغ مقام العبودية الناضجة

إذا أردنا، بعد هذه الرحلة كلها، أن نلخص سورة يوسف في معناها الأعمق، فلن يكون من الكفاية أن نقول: إنها سورة الصبر، أو سورة العفة، أو سورة التمكين، أو سورة الرؤيا؛ فكل هذه المعاني حاضرة فيها، لكنها ليست السقف الأعلى الذي تنتهي إليه.

إن سورة يوسف — في تقديري التأملي الجامع — هي سورة التكوين الإلهي للإنسان؛ الإنسان الذي لا يُترك خامًا، ولا يُسلم لوعده من غير إعداد، ولا يُدفع إلى موضعه النهائي دفعة واحدة، بل يُبنى طبقةً بعد طبقة، ومحنةً بعد محنة، وكشفًا بعد كشف، حتى يخرج من مجموع ذلك كله عبدًا ناضجًا، لا مجرد ناجٍ من البلاء، ولا مجرد واصلٍ إلى المنصب، بل عبدًا اكتملت فيه معاني العبودية على نحوٍ لا تُخرجه الشدة عن الله، ولا تفتنه النعمة عن الله، ولا تملكه الذاكرة عن الله، ولا يُنسيه تحقق الرؤيا أن غايته الأخيرة هي الله.

ولهذا فإن أعظم خطأ يمكن أن يقع في فهم سورة يوسف هو أن تُقرأ بوصفها قصة انتقال من الألم إلى الفرج، فحسب.

لأن الفرج فيها ليس مجرد تعويض، بل تتويج لمسار تربوي عميق.

والمحنة فيها ليست مجرد اختبار لصبر عابر، بل أداة صياغة.

والتمكين فيها ليس جائزة، بل مرحلة جديدة من التكليف.

ولم الشمل فيها ليس راحة وجدانية فقط، بل انكشاف لمعنى اللطف الذي كان يعمل من وراء كل شيء.

ولذلك يمكن القول:

إن سورة يوسف تعلّمك أن الله لا يبني الإنسان الصالح بناءً بسيطاً، بل يبنيه من خلال أربعة محاور كبرى، تتداخل فيها كل مشاهد السورة:

أولها: بناء الرؤية.

فالسورة تبدأ بالرؤيا، وكأن أول ما يُعطاه العبد هو المعنى، أو لمحة من المعنى، أو إشارة إلى الأفق الذي سيُساق إليه.

لكن الله لا يعطيه هذا المعنى ليطمئنه فقط، بل ليجعله بذرةً داخليةً تصمد حين تتشوش الطرق.

فالعبد الذي لا يملك رؤيا عليا لمعنى حياته يسقط غالباً تحت ثقل التفاصيل، أما الذي أُعطي من الله نوراً أولياً، ولو لم يفهمه كاملاً، فإنه يظل يحمل في قلبه شيئاً يقول له: ما يحدث ليس عبثاً، والطريق ليس بلا غاية، والآلام ليست سائبة، وإن خفيت الحكمة الآن.

وثانيها: بناء الداخل بالانكسار.

ولذلك كان الجب أول مدرسة حقيقية ليوسف؛ لأن الله أراد أن ينقله من الاعتماد على الحزن إلى الاعتماد على الحفظ، ومن الأُنس بالأسباب إلى الأُنس بالمُسبَّب، ومن التلقي الطفولي للوعد إلى الدخول في كلفته الفعلية.

والإنسان لا يبلغ النضج العميق ما دام يظن أن الرؤيا تكفي وحدها، أو أن البشارة تُغني عن التربية.

إن الرؤى العظيمة تحتاج إلى أرواحٍ عولجت بالظلمة، والوحشة، والتجريد، والتعليق بالله.

ولهذا كان الجب، في ظاهر القراءة، سقوطاً، لكنه في باطن السورة أول لحظة تحرير.

وثالثها: بناء الطهارة في موضع القدرة.

وذلك ما تكشفه فتنة امرأة العزيز.

فالقرآن لا يريد لك أن تفهم صلاح يوسف على أنه صلاح المحروم من الفرص، بل صلاح من اجتمعت حوله دواعي الانحراف كلها، ثم بقي قلبه لله.

وهنا يظهر أن الطهارة الكبرى ليست أن لا تجد باباً إلى المعصية، بل أن تجدها، وتُغلق عليك الأبواب، وتنتهي الظروف، ثم يبقى في روحك بابٌ واحد مفتوح على الله يغلب كل الأبواب المغلقة على الناس.

ومن هنا كان قوله: {مَعَاذَ اللَّهِ} ليس ردًا على امرأة، بل إعلانًا عن هوية ربانية لا تسمح للهوى أن يعيد تشكيلها.

ورابعها: بناء النفس على حمل القدرة من غير فساد.

وهذا هو الامتحان الذي لا ينتبه إليه كثير من الناس في السورة.

فكثير من النفوس قد تصبر وهي ضعيفة، لكن حين تمكن لها تعود إلى جراحها القديمة لتتأثر بها، أو تُسكرها السلطة، أو تبتلعها صورة الذات المنتصرة.

أما يوسف فقد ربّاه الله حتى بلغ القدرة من غير أن يتلوّث بها، وبلغ الظهور من غير أن يُفتن به، وبلغ اللقاء مع خصومه السابقين من غير أن يجعل من التمكين منصةً للانتقام.

وهنا تبلغ السورة أوجها الأخلاقي: ليس فقط في عفة يوسف وهو شاب، بل في عفوه وهو قادر.

ومن هنا، فإن سورة يوسف تكشف للإنسان أن البلاء ليس عكس العناية، بل قد يكون هو صورتها العميقة.

وهذا من أخصّ ما تربي عليه السورة.

فالناس في قراءاتهم السريعة يظنون أن لطف الله يعني أن تُرفع عنك المتاعب، وأن اصطفاؤه يعني أن يسلك بك الطرق السهلة، وأن رضاه يعني أن تتوالى عليك البشائر في صورة ما تشتهييه النفس.

لكن سورة يوسف تهدم هذا الفهم كله، وتقول لك:

قد يحبك الله فيدخل بك الحب،

وقد يصطفيك فيمررك عبر السوق،

وقد يطهرك فيعرّضك للفتنة،

وقد يعدّك فيسجنك،

وقد يكرمك فيؤخر خروجك،

وقد يلطف بك فيجعلك لا تفهم الآن لماذا تتعقد الأشياء بهذا الشكل.

لكنك إذا نظرت من آخر السورة إلى أولها، أدركت أن كل ذلك لم يكن نفيًا للعناية، بل كان شكلها الخفي.

ولهذا كانت الجملة التي تصلح أن تكون القلب التأملي الأوسع للسورة كلها هي قول يوسف: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ} [يوسف: ١٠٠].

لأن اللفظ هنا ليس فقط رحمةً مريحة، بل هندسة ربانية خفية، تدبر الأشياء من وراء تعقيدها، وتسوق العبد عبر ما لا يفهمه إلى ما لا يبلغه وحده.

واللطيف سبحانه لا يعمل دائمًا بالطرق المكشوفة، بل قد يعمل بالمنع، وبالتأخير، وبالتشويش الظاهري، وبالتقليب، وبإطالة المسافة، ثم يريك في النهاية أن الطريق الذي كنت تتمنى غيره لم يكن أصلح لك من الطريق الذي ساقك به.

وهذا الفهم — إذا استقر — يغيّر علاقة الإنسان بالحياة كلها.

يخفف من توتره، ويعمق ثقته، ويجعله أقل استعجالاً للحكم على المراحل، لأنه يعلم أن بعض ما يبدو نقيضاً لوعد الله قد يكون هو أدق الطرق إليه.

ومن أعظم ما تتفرد به سورة يوسف أيضاً أنها تعلمك أن الأحداث لا تصنع الإنسان وحدها، بل طريقة استقباله لها.

فالإخوة مرّوا بالقرب من الوحي والنبوة وفسدت قلوبهم بالحسد، ويوسف مرّ بالحب والسوق والفتنة والسجن فازداد صفاءً.

إذن ليست القيمة في نوع الحدث وحده، بل في نوع التفاعل معه.

وهذا من أخطر دروس السورة؛ لأنها تمنعك من التفكير التبسيطي الذي يعلّق الصلاح على الظروف فقط.

فكم من ظروف طيبة أفسدت نفوساً سقيمة، وكم من ظروف قاسية صاغت أرواحاً عظيمة.

والفارق في النهاية هو مقدار حضور الله في القلب، ومقدار الصدق في العبودية، ومقدار ما يتعلمه الإنسان من أقداره بدل أن يتحول إلى خصومة دائمة معها.

وتعلمك السورة كذلك أن الإنسان لا يكتمل بمجرد البراءة من الشر، بل يكتمل بتحوّله إلى مصدر خير.

فيوسف ليس فقط من لم يقع في المعصية، بل هو من أحسن في بيت العزيز، وأحسن في السجن، وأحسن في التأويل، وأحسن في الإدارة، وأحسن في العفو، وأحسن في اللّم، وأحسن في رد الفضل إلى الله.

إنه شخصية قرآنية بُنيت على دوام الإحسان مع تبدل الأحوال.

وهنا يتجلى قانون عظيم:

العبد الرباني ليس من تحفظه الطاعة في لحظات مخصوصة فقط، بل من يبقى جوهره الإحساني ثابتاً وهو يتنقل بين القصور والآبار والسجون والعرش.

وما دام الجوهر ثابتاً، فإن تبدل المواقع لا يفسده.

ثم إن السورة تقدّم لنا واحدة من أرفع الصور في فهم معنى النجاح.

فنحن عادةً نقرأ النجاح من جهة تحقّق الرغبات، أو استعادة ما ضاع، أو بلوغ المنصب، أو انكشاف البراءة، أو اجتماع الأهل.

وكل هذا وقع ليوسف، لكنه في ختام السورة لم يقف عند شيء من ذلك بوصفه النهاية.

بل قال: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

وكأن السورة، بعد أن تمررك على كل هذا الجمال المدهش في بناء الأحداث، تريد أن تمنعك من الوقوف عندها، وأن ترفعك إلى السقف الأعلى:

ليس المهم فقط أن تنجو في الدنيا، بل أن تخرج منها مسلماً.

ليس المهم فقط أن تتحقق رؤياك، بل أن لا تُنسيك الرؤيا ربّها.

ليس المهم فقط أن ينتصف لك التاريخ، بل أن تُحسن الخاتمة عند الله.

وهذا هو المعنى الذي يجعل سورة يوسف سورة عبودية ناضجة قبل أن تكون سورة نصرٍ أو عزاء.

وفي ضوء هذا كله يمكن أن نقرأ شخصيات السورة بوصفها دوائر تعليمية متكاملة:

يعقوب يعلمك كيف يصبر القلب المؤمن على الفقد دون أن يفرط في الرجاء.

ويوسف يعلمك كيف يُصاغ الإنسان بين الوعد والألم حتى لا يفسده شيء.

والإخوة يعلمونك كيف يمكن للحسد أن يهبط بالإنسان إلى دركات قاسية، ثم كيف يمكن للتوبة والاعتراف أن يفتحاً باباً للرجوع.

وامرأة العزيز تكشف لك كيف تعمل الفتنة حين تجتمع الشهوة بالسلطة، ثم كيف ينكشف الحق ولو بعد حين.

والسجن يكشف لك أن العزلة قد تكون أحياناً موضع تهيئة لا موضع إلغاء.

والملك والمجاعة يبيّنان أن الرجل الرباني ليس مجرد عابد معزول، بل قد يكون أيضاً صاحب رؤية عامة وتدبير لمصالح الأمة.

ولذلك فالسورة ليست قصة شخص واحد، بل مدرسة كاملة في فهم الإنسان،
والقدر، والفتنة، والسلطة، والأسرة، والزمن، والرجاء.

ويمكن اختصار روح السورة كلها في عبارة واحدة جامعة:

سورة يوسف هي سورة الإنسان الذي ربّاه الله بالرؤيا، وهذّبه بالحب، وطهره
بالفتنة، وأنضجه بالسجن، ومكّنه بالرحمة، وامتحنه بالقدرة، ثم أعاده إلى
أهله عبدًا خالصًا لا يملك قلبه إلا الله.

وهنا، تنتهي السورة من جهة الأحداث، لكنها تبدأ من جهة الأثر؛ لأن من
قرأها حقًا لا يعود بعد ذلك يقرأ حياته بالطريقة نفسها.

يصير أقل جزعًا من المراحل المبهمة، وأشدّ توقيرًا لسنن الله الخفية، وأقلّ
استسلامًا لتعريفات الناس له، وأشدّ فهمًا أن بعض التأخيرات رحمة، وبعض
الانكسارات تحرير، وبعض العزل إعداد، وبعض الفتن تطهير، وبعض
التمكين امتحان، وبعض الأحزان الطويلة ليست موتًا للمعنى، بل حملًا له
حتى ينضج وقته.

الخلاصة الكبرى للسورة

يمكن أن نقول في خلاصة جامعة نهائية:

إن سورة يوسف لا تعلّمك فقط كيف تصبر، بل كيف تفهم ما تصبر عليه. ولا تعلّمك فقط كيف تعفّ، بل كيف تتشكل هويتك في لحظة الفتنة. ولا تعلّمك فقط أن الله يفرج، بل كيف يكون التأخير نفسه جزءًا من الفرج. ولا تعلّمك فقط أن التمكين نعمة، بل أن النعمة إذا لم تُتَّوَجَّ بعبودية صافية فقد ضاع معناها.

المفتاح الأخير

في سورة يوسف لا يُصنع الإنسان بالوعد وحده، ولا بالألم وحده، بل يُصنع حين يمرّ بالوعد والألم والفتنة والقدرة وهو لا يزال في كل طورٍ منها يتجه إلى الله؛ فإذا اكتمل ذلك، خرج من القصة كلها لا رجلَ نجاحٍ فقط، بل رجلَ عبودية.

الخاتمة الأدبية والفكرية للكتاب

ليست سورة يوسف سورة تُقرأ ثم تُطوى، بل سورة تدخل إلى الإنسان لتعيد ترتيب طريقتة في فهم نفسه، وفي فهم الله، وفي فهم ما يجري له بين الوعد والخذلان الظاهر، وبين الفقد والرجاء، وبين الظلمة التي لا يفهمها واللفظ الذي لا يراه إلا بعد اكتمال الصورة.

إنها السورة التي تنزع من قلبك التفسير الساذج للحياة، وتقول لك في عمقك: ليس كل ما انكسر قد ضاع، وليس كل ما تأخر قد نُسي، وليس كل ما أوجعك كان ضدك، وليس كل باب أُغلق كان حرماناً، وليس كل طريقٍ معتم كان انقطاعاً عن العناية.

فكم من جبٍّ كان أول أبواب النجاة، وكم من سوقٍ بخس قيمةً صاحبه في أعين الناس بينما كان الله يرفعه في ميزانه، وكم من فتنةٍ لم تأت لتسقط العبد بل لتكشف معدنه، وكم من سجنٍ ظنه الناس إلغاءً فإذا هو ورشة إعداد، وكم من تأخيرٍ حسبته النفس تعطيلًا فإذا هو ضبطٌ دقيق لساعة الظهور.

وسورة يوسف، في أخصّ معانيها، لا تعلّمك أن الصبر فضيلة فقط، بل تعلّمك أن الصبر طريقةٌ رؤية، وأن الرجاء شكلٌ من أشكال المعرفة بالله، وأن الطهارة ليست امتناعاً بارداً عن الشر، بل امتلاءً بالله يجعل القلب أكبر من الإغراء، وأن العفو ليس ضعفاً، بل سموّ نفسٍ رأت يد الله فوق جراحها، فلم تعد أسيرة لمن آذاها، بل صارت أوسع من آذاه.

وفيهما تتعلم أن أجمل ما يصنعه الله بعبده ليس أن يخرجك من البلاء سريعًا، بل أن يخرجك منه أعلى؛ أكثر معرفة، وأشد صفاء، وأوسع قلبًا، وأدق بصيرة، وأصلب توكلاً، وأقل افتتانًا بالخلق، وأشد اتصالًا بالخالق.

فليس الانتصار الحقيقي في أن تسترد ما فقدت فحسب، بل في أن لا تفقد نفسك وأنت تعبر الفقد، ولا تفقد طهارتك وأنت تعبر الفتنة، ولا تفقد إنسانيتك وأنت تعبر القدرة، ولا تفقد وجهتك إلى الله حين تتجمع لك الدنيا بعد طول الحرمان.

لهذا كانت سورة يوسف من أعظم السور تربيةً للروح؛ لأنها لا تقدم لك بطلاً خرج من الحياة بلا جراح، بل تقدم لك عبدًا مرّ بالجراح كلها تقريبًا، ثم خرج منها بقلب لم يتلوّث، وبروح لم تنكسر، وبنفس لم تتوحش، وبإيمان لم يبرد، بل ازداد نقاءً وعمقًا وصدقًا.

وهنا يكمن سرها الأعظم: أنها لا تبهرك فقط بجمال القصة، بل ترفعك إلى هذا السؤال المرعب الجميل معًا: أيُّ إنسانٍ يريد الله أن يصنع منك وأنت تمرّ بآبارك وأسواقك وسجونك الخاصة؟

إن هذه السورة لا تمنحك مجرد عزاء، بل تمنحك ميزانًا.

ميزانًا تقيس به المراحل فلا تغترّ بالبدايات، ولا تيأس من الانكسارات، ولا تستعجل النهايات، ولا تفسر الأشياء من سطحها وحده.

إنها تُخرجك من عبودية اللحظة إلى سعة النظر في السنن، ومن أسر الظاهر إلى الثقة بما يدبره اللطيف في الخفاء، ومن التعلق بالأسباب إلى الرسوخ في

المسبب، ومن تفسير النعمة على أنها راحة فقط إلى فهمها على أنها أحياناً تكليف، ومن فهم البلاء على أنه نقض للعناية إلى إدراكه بوصفه أحد وجوهها العميقة.

ثم تنتهي السورة، لكن أثرها الحق لا ينتهي؛ لأنها تترك في قلبك جملة لا تكف عن الاتساع كلما عشت أكثر، وتألّمت أكثر، وانتظرت أكثر، وتألّمت أكثر: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ}.

وهذه ليست جملة تواسيك فقط، بل جملة تعيد بناء وعيك كله؛ تعلّمك أن الله قد يسوقك إلى أجمل ما كُتب لك عبر الطريق الذي كنت ستختار غيره لو تُرك لك الأمر، وأن رحمته ليست محصورة فيما تفهمه أنت من الرحمة، وأن حكمته لا تقاس بقصر الطريق، بل بتمام الغاية.

فإذا خرج القارئ من سورة يوسف وقد ازداد يقيناً بالله، واتسعت رؤيته للبلاء، وتطهرت نظرته إلى النجاح، وفهم أن حسن الخاتمة أعلى من كل مُلك، وأن العبودية أكرم من كل انتصار، وأن اللطف يعمل حتى حين لا يُرى، فقد قرأ السورة حقاً، لا بعينه فقط، بل بقلبه أيضاً.

ولعل أنسب ما يُختم به كتابي هذا أن أقول:

إن يوسف لم يكن معجزة السورة الوحيدة، بل القارئ نفسه يمكن أن يصير — إذا وعى هذه السورة وعاشها — مشروعَ نَجاةٍ أعمق، وإنساناً آخر؛ إنساناً لا يقرأ جرحه بوصفه نهاية، ولا تأخره بوصفه نسياناً، ولا فتنته بوصفها حتمية سقوط، ولا تمكينه بوصفه امتيازاً شخصياً، بل يقرأ كل ذلك

في ضوء ربّ لطيف، حكيم، عليم، إذا أخذ أخذ ليعطي، وإذا أبطأ أبطأ ليحكم،
وإذا ابتلى ابتلى ليصطفي، وإذا صبر به عبده حتى النهاية أعاده إليه لا فقط
بما فقد، بل بما هو أعلى وأبقى وأجمل.

تم بعون الله وتوفيقه